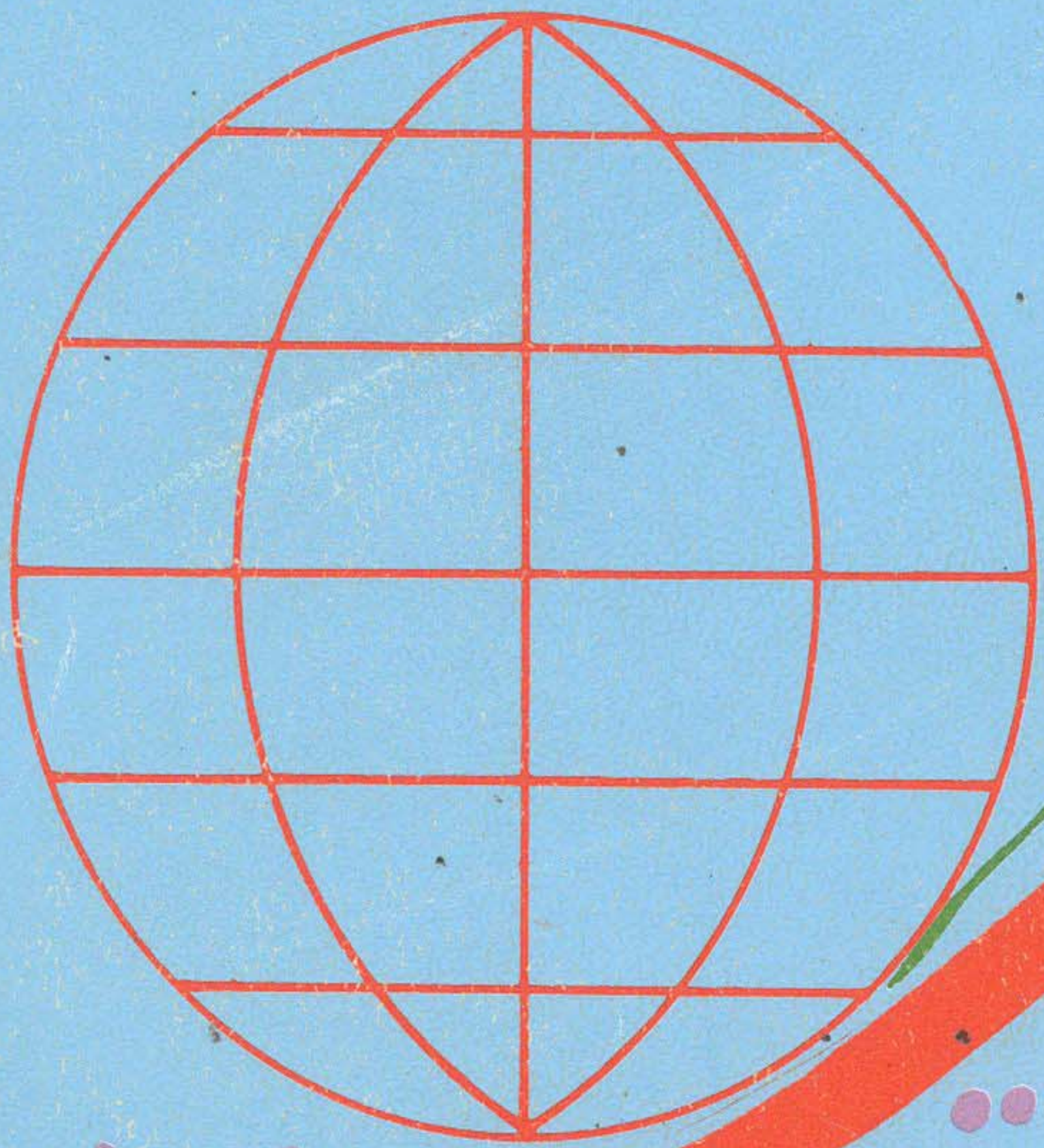


# فقه الشَّخ

وَأَزْمَةُ الْمُسْلِمِينَ الْحَضَارِيَّة



عبد الحليم عويس

مَلَكْنَا..

لَمَنَّا الدُّنْيَا الْقُرُونُ

وَأَخْضَعْنَا جُرُودٌ...

خَالِدُونَ، وَسَطَرْنَا صَبَائِفَ مَنْ ضَيَّأ

فَمَا نَسِيَ الزَّمَانَ وَلَا نَسِينَا، وَمَا فَتِيَ..

الزَّمَانَ يَدُورُ قَتَى مَضَى بِالْمَجْدِ قَوْمٌ

أَخْرُونَا، وَالْمَنَى وَالْمَكَلَّ حِرْسُؤَالُ التَّكْرُابِ الْمُسْلِمُونَ.



## قضية هذا الكتاب

ليس التاريخ بالنسبة للأمة مجرد ماض انتهى بل هو بالنسبة لكل الأمم الحيّة جزء من النهر الكبير الذى تتدافع بين شطآنه أمواج حضارتها فيكاد الماضى ينسكب فى الحاضر ويكاد الحاضر يذوب بين معبرى الماضى والمستقبل .

وفقه التاريخ ضرورة لكل أمة تريد أن يبقى لها دور مُتميّز فى التاريخ، وهو بالنسبة لأمتنا الإسلامية شرط من شروط وجودها ؛ فنحن موصولون بركن من أركان تاريخنا نطلق عليه اسم « السيرة النبوية وعصر الراشدين » ، كما أننا لا نستطيع إغفال الفتوحات الإسلامية عبر القرون أو إغفال ما أعطته لنا هذه القرون من علوم إسلامية فقهية وقرآنية وعلوم لغوية وأدبية وتجريبية .

والكتاب الذى بين أيدينا يطرح قضية خطيرة هى : « قضية تفسير التاريخ من وجهة نظر إسلامية » تؤدى إلى تأصيل وعينا بتاريخنا وحضارتنا بحيث تُطردُ كلُّ التفسيرات التى تقود إلى عناصر دخيلة من الشرق أو الغرب .

لذا يسر دار الصحوة أن تقدم هذا الكتاب اسهاما منها فى المضى بمسيرتنا الحضارية نحو المستقبل المأمول بجناحى الأصالة والتحديث .

وعلى الله قصد السبيل ،

### دار الصحوة

حدائق حلوان بجوار عمارات المهندسين

ت : ٦٨٨٠٧١ القاهرة

الدكتور عبد الحلیم عویس

فقہ التاریخ

وأزمة المسلمين الحضارية

الطبعة الأولى

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

دكتور محمد عبد الحليم عويس

# فِئَةُ الشَّخِ

وَأَزْمَةُ الْمُسْلِمِينَ الْحَضَارِيَّةِ



## بسم الله الرحمن الرحيم

### مقدمة

ليس التاريخ بالنسبة للأمة مجرد ماض انتهى ، بل هو بالنسبة لكل الأمم الحية جزء من النهر الكبير الذى تتدافع بين شطآنه أمواج حضارتها . . فيكاد الماضى ينسكب فى الحاضر ، ويكاد الحاضر يذوب بين معبرى الماضى والمستقبل . .

وليس التاريخ مجرد أحداث جامدة إلا لهؤلاء الذين فقدوا وعيهم بذاتهم وحضارتهم ووقفوا عراة يتسولون من هنا وهناك بعض فتات الحضارات المحيطة بهم . . .

إن التاريخ هو الكنز الذى يحفظ مدخرات الأمة فى الفكر والثقافة والعلم والتجارب ، وهو الذى يمددها بالحكمة التى تقتضيهما رحلتها فى الزمان تجاه تقلب الأحداث .

والأمة التى لا تحسن الفقه بتاريخها ، أعنى بهذا الرصيد المذخور لديها هى أمة فاقدة للحس التاريخى ، مريضة بحالة غيبوبة عن الذات ، تائهة — فى النهاية — عن حقيقتها ودورها ومعالِم طريقها إلى المستقبل الذى أعدها له القدر الحكيم .

إن تباين الأمم لم يأت عبثاً ، وإنما جاء لتصنيع كل هذه الأمم — بتباينها وتعدد أنماطها وعطاءاتها — رحلة البشرية في التاريخ ، ولتؤدي <sup>من خلالها</sup> — العناية الإلهية المبتغاة من هذه الرحلة التي يخيل لبعضهم — بقصور في مداركهم وحسبهم الحضارى — أنها رحلة بلا غاية ، وأنها لا معنى لها .. ولا حكمة تحكم أشواطها ..

بل إن ( فقه التاريخ ) ضرورة لكل أمة تريد أن يبقى لها دور متميز في التاريخ ، وهو بالنسبة لأمتنا الإسلامية شرط من شروط وجودها .. فنحن — في مستوى العقيدة والعبادة والحياة الاقتصادية والاجتماعية موصولون بركن من أركان تاريخنا نطلق عليه اسم ( السيرة النبوية وعصر الراشدين ) .. ونحن نعتبر هذا الجزء من تاريخنا — على الأقل — حياة تعيش في وجداننا وذكماً يجرى في عروقتنا ، وهو بعض عقلنا ووجداننا ، وهو رسالتنا الحضارية ..

وإذا ما استثنينا هذا العصر الذي يريد بعضهم حصار تاريخنا النموذجي فيه ، بل يريدون تشويهه أيضاً دون اعتبار للطاقة البشرية .. إذا ما استثنينا هذه الفترة .. فنحن — أيضاً — لا نستطيع إغفال ما أعطته لنا القرون الأخرى من علوم إسلامية فقهية وقرآنية وعلوم لغوية وأدبية وتجريبية وعلوم الدفاع عن العقيدة بمناهج كلامية ولا نستطيع إغفال الفتوحات الإسلامية ، ولا صفحات الأمويين والعباسيين والمماليك والأيوبيين والعثمانيين على الرغم من وجود أخطاء لهم ..



إنهم تجربتنا في التاريخ وعبرتنا وإيجابياتنا وسلبياتنا  
وبعض شخصيتنا ، ولا نستطيع أن نمزق صفحتهم وننتمى  
إلى فراغة أو قرطاجيين أو طورانيين أو فرس أو غيرهم ممن  
قطع الإسلام أنسابنا بهم ..

إن أبا بكر الصديق العربي وسلمان الفارسي وصهيبا  
الرومي وصلاح الدين الكردي ومحمد الفاتح التركي وسيف  
الدين قطز المملوكي ... إن هؤلاء هم أهلى وأرحامى وكيانى  
الحضارى أكثر ألف مرة من كل ( الفراعنة ) الذين حكموا  
أجدادى المصريين المساكين ، وبنوا على أكتاف شعبى المصرى  
المجاهد مقابرهم الفخمة التى دفنوا فيها وسموها الأهرامات  
واعتبرت من عجائب الدنيا ... وهى - كما سماها شوقى -  
( من بناء الظلم ) !!



إن الوعى بتاريخنا وحضارتنا الإسلامية هو الطريق  
لاستئناف الأمة الإسلامية لدورها القيادى ... أما عن  
التبعية - على غرار كمال أتاتورك وتلميذه أنور السادات ومن  
على شاكتهما وهم كثيرون للأسف الشديد - فمن شأنها  
أن تحولنا إلى شعوب مستهلكة مدينة ، وأن تحول بين أمتنا  
وأى استقلال أو إبداع ، وأن تحفظ تخلفنا وتمزقنا على النحو  
الذى قدمته لنا صورة المسلمين والعرب فى الأحقاب الأخيرة

التي رزقوا فيها أنهم تحرروا من الاستعمار ونالوا الاستقلال  
فوجدوا أنفسهم يعانون من ضياع ربما لم يحسوا بثقله على  
هذا النحو أيام كانوا تحت قبضة الاستعمار السياسي والعسكري  
في القرنين الثالث عشر ومعظم الرابع عشر الهجري



وفي هذا الكتاب تطرح هذه القضية الخطيرة .. قضية  
( تفسير التاريخ ) من وجهة نظر إسلامية تقود إلى ( الوعي  
بالذات ) وتأصيل هذه الذات بحيث نطرد عنها كل التفسيرات  
التي تقود إلى عناصر دخيلة مسقطة على تاريخنا - ( وذاتنا )  
من الشرق أو الغرب ..

ونحن نحمد الله على أن العقل الإسلامي - على الرغم  
من كل ما يؤخذ عليه - قد تقدم خطوات كبيرة في وعينه  
بحضارته وفقهه بتاريخه .. وقد ظهرت في هذا السبيل نماذج  
متعددة وقفنا عند بعضها لتأريخ هذا التطور في النظرة إلى  
التاريخ ، - وهو التطور الذي نأمل أن يضطرر حتى يكون  
إطارنا التاريخي وتجربتنا الحضارية الإسهام الفعال -  
والوثر بقببماته ومعالمه - في مسيرتنا الحضارية نحو المستقبل  
الذي يمشي بجناحين معا : الأصالة .. والتحديث ..

وعلى الله قصد السبيل .. ومثله وحده السداد والتوفيق ..

القاهرة الإسلامية

غرة ذي الحجة ١٤٠٦هـ ( أغسطس ١٩٨٦م )

# الفصل الأول

البحث التاريخي في ضوء الرؤية الإسلامية

(مع دراسة نماذج معاصرة)



تتميز الحضارة الإسلامية بانطلاقها من ركائز ثابتة محددة ، قد يقترب منها المسلمون — في بعض العصور — فيمثلونها خير تمثيل ، وقد يبتعدون عنها فيصبحون ممثلين لها تمثيلاً نسبياً .

وقد احتل التاريخ منذ ظهرت هذه الحضارة على الأرض مكانة أساسية في أصول هذه الحضارة . . . . وإن القرآن الكريم — وهو المصدر الإسلامي الأول — ليحفل بمئات الآيات التي تعالج قضايا التاريخ ، وتستخلص منها القيم الإنسانية والتوجيهات الحضارية التي تفيدها رحلة الأمم السابقة في مراحل قوتها وضعفها . . . .

والحقيقة أننا مضطرون لأن نسجل أن المسلمين — في رحلة حضارتهم — قد وفقوا في الانطلاق من القرآن الكريم — مصدرهم الأول — في علوم كثيرة أطلقوا عليها اسم ( علوم القرآن ) . . . كما أنهم قد اعتمدوا على القرآن وانطلقوا منه في علوم أخرى كعلوم اللغة العربية . . . بيد أنهم — مع هذا الخط البياني المتقدم جداً — في علوم القرآن واللغة بالنسبة لعصورهم — لم يكن خطهم البياني مساوياً أو قريباً من خط العلوم السابقة فيما يتصل بفقهم لعلوم تفسير الحياة والتاريخ . . . .

وحتى مع ظهور بعض الومضات المتألقة لدى مفكر عظيم  
كأبي محمد بن علي بن حزم ( ٤٥٦ هـ ) في كتابه ( الفصل في  
المملك والأهواء والنحل ) ومفكر عملاق مثل أحمد بن عبد الحلیم  
ابن تمیمة ( ٧٢٨ هـ ) - وأخيراً لدى أكبر العلماء على الإطلاق  
في فقه التاريخ قبل العصر الحديث مؤرخنا العبقري عبد الرحمن  
ابن خلدون ( ت ٨٠٨ هـ ) . . . .

حتى مع ظهور هذه الومضات وغيرها فإن الخط البياني  
في فقه المسلمين للحياة والتاريخ بقي متخلفاً لا يتساوى إطلاقاً  
مع التكتيف القرآني لقصص الأمم البائدة ، ولا ينسجم مع  
هذه المساحة التي أعطاها القرآن لرحلة الصراع بين الحق  
ويمثله ( الأنبياء ) ، وبين الباطل ويمثله ( أعداء الأنبياء )  
المحافظون على سيطرة الكفر والفساد ، والواقفون ضد العدل  
والحرية والإيمان .

ولقد انشغل المسلمون بدلاً من البحث في فقه التاريخ  
- بعلوم كلامية وافتراضات خيالية وصراعات مع أشباح  
ماضية لم يعد لها وجود . . . وحتى اللغة - وليست العقيدة  
أو الفقه فحسب - دخلها من هذا الترف العقلي ما أفسد رواءها  
وعقد بساطتها وشوه جمالها . . . وكان هذا الامتداد الجدلي  
على حساب فقه التاريخ والحياة . . وبالتالي ضاعت ومضة  
ابن خلدون - كما ضاعت الومضات الأخرى - فلم يكد يظهر  
فقه موضوعي للتاريخ يعتمد منهجية علمية دقيقة إلا في العصر

الحديث عندما بدأ المسلمون يفتقون إلى موقفهم في الحضارة  
بعد غفلة طالَّت ...

ويعتبر العلامة المهندس ( مالك بن نبي ) - من وجهة  
نظري - أبرز معلم وضيء في هذا المنعطف الجديد الذي يمثل  
الطريق الصحيح لفقهِ هذا الركن الأساسي في القرآن الكريم ،  
وهو فقهِ الحياة والتاريخ على ضوء التصور الإسلامي الصحيح .

### المسلمون والتاريخ في العصر الحديث :

مما لا شك فيه أن الضمير الإسلامي قد عانى الكثير وهو  
يجد رقعة العالم الإسلامي في العصر الحديث تكاد تظلها  
بالسواد جيوش الاستعمار الصليبي والأوربي ... وما فشل  
فيه صليبيو ( بطرس الناسك ) - بعد جهد - نجح فيه -  
صليبيو المدفع والدبابة والمطبعة - دون جهد - ولقد أدرك  
المسلمون أن المعركة الجديدة ليست كالمعارك السابقة ...  
لقد كانت الحضارة في جانبهم في كل المعارك السابقة ( ١ ) ...  
أما في هذه المعركة فقد كانت الحضارة لدى الطرف الآخر ...  
لقد انهزم المسلمون عبر تاريخهم في معارك عسكرية كثيرة -  
شأنهم شأن كل البشر - لكن الهزيمة في لقاءهم الأخير مع  
الحضارة الأوربية كانت مصحوبة بمزارة خاصة ، إذ أنهم  
أدركوا أن ثمة تحولا جديداً قد ظهر في التاريخ ، وأن الأمر

ليس أمر هزيمة عسكرية... فحتى لو أخرجوا عدوهم وانتصروا عليه عسكرياً فإن التحدي يبقى أكبر من ذلك... وكان هذا هو «القلق» الذي أصاب الوجدان أو الضمير الإسلامي الواعي... على الرغم من وجود دجالين حاولوا التضحك على شعوبهم وعلى التاريخ، وصوروا الأمر على أنه معركة عسكرية... وأن الانتصار فيها وتحقيق الاستقلال العسكري هو أهم شيء... مع أن هذا الانتصار - أو الاستقلال - لا يعدو أن يكون عند أحسن الفروض - جزءاً من أجزاء صراع حضارى معقد .

وقد تساءل الضمير الإسلامى - وكان من واجبه أن يتساءل حول تلك الأسباب التى وصلت به إلى هذا المنحدر؟ وكيف استطاعت الحضارة الأوربية - فى غفلة عنه - أن تصل إلى ما وصلت إليه؟ وبالتالى: ما العوامل التى أغفلها والطرق التى أهملها حتى اتسعت الشقة بينه وبين خصومه الحضاريين؟ - وقد تصدى للإجابة على هذه الأسئلة كثيرون مخلصون - ودعنا من غير المخلصين الذين سرقتهم الحضارة الأوربية أو ذابو فيها فهؤلاء لا يعنوننا، لكن هؤلاء المخلصين - مع ذلك - انقسموا فى إجاباتهم إلى فريقين:

---

(١) إذا كانت وسائل المسلمين فى عصر الرسول وخلفائه الراشدين أقل من وسائل أعدائهم، فقد كان لدى المسلمين شعور بالتفوق الحضارى العقدى والفكرى والسلوكى . وهذا هو المهم .



فريق رافض للحضارة الأوروبية بالجملة ... يشجبها كلها ولا يرى فيها خيرا ، دون أن تكون لديه رؤية إبداعية نقدية تعرف حدود الأخذ والرفض الحضاريين ، وتعرف ما يؤخذ لينمى وما يؤخذ ليقتل ، وتعرف الفرق بين التكنولوجيا وفلسفة التكنولوجيا وأهدافهما ... وجل هذا الفريق لم يفهم حتى تلك الوسائل الإنسانية العامة ، والتي اتكأت عليها أوروبا أيضا لكي تحرز تقدمها ، ولم يحاول هذا الفريق - مع إخلاصه الشديد وسلوكه الشخصي الحميد غالباً - أن يتعب نفسه في جدالية الحوار بين الحضارات ولا في الفقه بالسنن الكونية ، ولا في محاولة جادة للقفزة من فوق الجزئيات المتناثرة والرؤى الفرعية إلى الجمع والتركيب والرؤية الكونية والاجتماعية الشاملة ... وقد ساعد هؤلاء على عجزهم وقصورهم تخصصهم الحرفي في بعض العلوم الجزئية الموسومة بالدينية ... فالفقيه يرى الحياة محصورة في تلك الأحكام الفقهية المتناثرة دون أن يربط فقهه بالتطورات الاجتماعية والسنن التي تحكم المجتمعات ، والمحدث محصور في دائرة الجرح والتعديل ... والمفسر - كمؤرخ الخوليات - يشرح ( بضم الياء وكسر الراء وتشديدها ) الآية تشريحا جزئيا دون أن يقف كثيرا عند استخلاص القوانين والسنن من خلال الآيات التي تمثل شرائح حضارية متناظرة .

وحتى تلك الآيات القرآنية المتعلقة بالأمم السابقة وبالسنن الكونية عولجت - والأحاديث مثلها - بالمنهج نفسه ...

— وهذا هو الفريق الأول ، وهو ينظم أكثر العاملين في الحقل الإسلامي والفكري ، وأعضاء هذا الفريق قدموا للأمة خدمة عظيمة لا تنكر ، فهم نقلة جيدون للعلوم الإسلامية ، وهم حفظة لها ، لكن دورهم يحتاج إلى تطوير حتى يحقق هدفية الرئيسين : وهما الاجتهاد المستمر لمواجهة التحديات ، وإيجاد البديل والفاعلية الاجتماعية والحضارية الشاملة .

— وأما الفريق الثاني من المخلصين فهم تلك القلة البدعة التي تحمل هم الحضارة الإسلامية على كاهلها ، وبالرغم من تخصصها في فرع من الفروع ، فهي تمتد الطرف إلى الأمة الإسلامية عبر الزمان والمكان ، وترى أنه لا بد من استئناف دورها في التاريخ ، وأن ذلك لن يتحقق إلا بالإجابة الواعية الصحيحة عن التساؤلات المقلقة للوجدان الإسلامي ، وصولاً إلى وضع القطار فوق القضبان الصحيحة . . . فلا يمكن مهما نبغ النابغون في بعض العلوم والجزئيات — أن تقوم حضارة إلا إذا كان ثمة فقه صحيح للسنة الاجتماعية والكبونية ، وكانت هناك رؤية شاملة وغايات عليا . . . ولن تستطيع المعارف المتناثرة وحدها أن تؤدي دورها إلا إذا توافرت لها شروط التوظيف الحضاري . المختصة للفاعلية والبناء . . . ومن هذه الشروط :

١ — أن تفهم الجماعة الإسلامية نفسها وموقعها في

الحضارة ومسئوليتها نحو التاريخ والبشرية ...

٢ - أن تفقه الجماعة - أو الأمة - ديئها وطبيعته  
الامتدادية والحضارية \*

٣ - أن يربط التخصص بالغايات الإسلامية العليا ، وأن  
تكون مسئولية الأمة نحو التاريخ والحضارة الإنسانيين  
مغروسة في وجدان كل باحث وعامل وعالم ، فقيها كان أو  
طبيباً أو مهندساً أو مزارعاً أو مفسراً أو محدثاً أو تاجراً \*

٤ - أن تزول الحواجز القائمة بين العلوم المسماة  
بالدينية أو المعاشية ، فكل ما ينفع هو دين ودنيا وكل ما يضر  
هو عبء على الدين والدنيا ، وباستثناء الحد الأدنى من الدين  
فكل العلوم فرض عين إذا تحددت بأشخاص ، فرض كفاية  
على مجموع الأمة \*

٥ - أن يعود المسلمون إلى الارتباط بالسنة الكونية ،  
وفقه قوانين الحضارة ، وتعميق رؤيتهم للتجارب التاريخية  
التي سردها القرآن ، وللتجربة النموذجية التي قدمها الرسول  
( ﷺ ) ولتجربتهم الحضارية خلال أربعة عشر قرناً في التاريخ ،  
ولتجارب الأمم من حولهم ، ويؤمنوا - بلا ريب - أنهم لن  
يستطيعوا القفز فوق السنة الإلهية ، ولن يقودوا الحضارة إلا  
بمؤهلات القيادة ، وفي ظل مناسخ يجب أن يتسرعوا لتهيئته

( م ٢ - فقه التاريخ )

وتوفير شروطه •

ومن هذه المنطلقات هب الفريق الثنائي من المخلصين المسلمين يسعى إلى إعادة بناء التصور الإسلامي — كما جاء في الإسلام — ويسعى لإقامة أبنية فكرية ذات مضامين قادرة على تكوين رؤية صحيحة لدى المسلم تجاه الحضارة والتاريخ وما يتصل بهما من قضايا التقدم والتأخر وعوامل النهوض وعوامل السقوط...•••

### الاتجاه الإسلامي المعاصر في التاريخ :

ذكرنا أن الاتجاه الإسلامي النقدي الشمولي للتاريخ لم يظهر في الكتابات الحديثة إلا في مواجهة تلك الأزمة الحضارية التي أحس بها الإنسان المسلم عندما التقى بخيوله ورماحه ووسائله البدائية مع مدافع أوروبا ومطابعها ، وواجه سيطرتها — بسهولة كبيرة — على خريطة العالم الإسلامي •

ومن هنا فقد اتجه البحث لدى كل مخلص — مؤرخاً كان أو عالماً طبيعياً أو فقيهاً — للبحث عن أسباب تأخر المسلمين وأسباب تقدم أوروبا...•••

ومن الوقوف عند هذا السؤال — بل تحت هذا العنوان نفسه — ظهرت مجموعة من الكتب والدراسات...•••

وبالإضافة إلى هذه البحوث التي اتجهت اتجاهها مباشراً  
لمعالجة القضية وجد اهتمام لدى كثير من الباحثين بحيث وجدنا  
آراءهم وتحليلاتهم — من كتاباتهم المختلفة — تعالج هذا  
الجانب بطريقة أو أخرى .

إن القضية لم تقف عند (منظر) يجعل القضية همه  
الأكبر مثل (مالك بن نبي) أو عند تلامذته المتأثرين به تأثراً  
مباشراً والمنتشرين على امتداد الساحة العربية ، ومنهم  
الدكتور عمار طالبى (جزائرى) والأستاذ عبد الوهاب حمودة  
(جزائرى) والدكتور محمود محمد سفر (سعودى)  
والدكتور عماد الدين خليل (عراقى) والدكتور جودت سنعيد ،  
وجماعة (ندوة مالك بن نبي) فى لبنان وسوريا . . .

بل إنها رشيحت فى كتابات كثيرين من أقتال شكيب  
أرسلان ، ومحمد إقبال ، وجمال الدين الأفغانى ، ومحمد  
عبدى ، والمفكر المسلم إيتين دينيه ، ومحمد أسد (ليو بولدفائيس)  
وعبد الرحمن الكواكبى وأبى الأعلى المودودى ، والشهيد  
سيد قطب ، والمفكر الهندى محمد تقى الأمينى ، والعلامة  
أبو الحسن الندوى ، والداعية الشيخ محمد الغزالى ، والدكتور  
محمد سنعيد رمضان البوطى ، والأستاذ أنور الجندى . . .  
والأستاذ محمد جلال كشك . . . وغيرهم .

— وقد بدأ اتجاه جديد يشق طريقه فى الكتابة التاريخية

في مواجهة الأزمة الحضارية التي تعيشها الأمة ، والتحديات التي تواجهها .

### المعالم الحضارية في هذا الاتجاه :

هذا الاتجاه بإجمال يؤمن بأهمية دور الأمة الإسلامية ويؤمن بقدرتها على العطاء واستئناف دورها في التاريخ ، وهو يثق في أصول هذه الحضارة ، ويتجاوز مرحلة الانبهار والتلفيق ، ولا يرى في الحضارة الأوروبية الشوط الأخير في رحلة الحضارة ، بل يرى أن في هذه الحضارة صنوفا قاتلة من الخلل ، وإن كان لا يؤمن بالتزام السكونية أو القدرية أو الحتمية ، حتى تتداعى آلياً هذه الحضارة . . . لأنه مطالب بالبديل والعمل - ليس لإسقاط الحضارة الغربية - فهذه ليست قضيته ، بل لتقديم حضارة بديلة تتناغم مع الصياغة الإسلامية للحياة . . .

ويرى هذا الاتجاه أن ضعف المسلمين وتفرقهم هما أكبر خدمة يقدمها المسلمون لأعدائهم ، وأن كل صور الغزو الخارجية السياسية والاقتصادية والعسكرية مرجعها إلى خلل في البناء الداخلي للأمة الإسلامية نشأ من الانفصام النكد الذي وقع بين حياة المسلمين وبين شريعتهم وأصولهم الحضارية .

ويفترق هذا الاتجاه بين مصطلحي ( التحديث ) الذي

هو امتلاك كل الأساليب الصحية النافعة لدى الخصم الحضارى ، وبين ( التغريب ) الذى هو استسلام للغرب . . . .  
فالتحديث علاقة تفاعل بين حضارتين ، والتغريب تبعية المغلوب للغالب . . .

ويرى هذا الفريق أن ( الحضارة تحد ) ولا يمكن أن تستورد الحضارة أو تشتري ، فهي معاناة ورقى متدرجان ، وليست الحضارة هى الآلات أو المنجزات المادية ، بل الحضارة مركب مكون من العقيدة والفكر والإنسان والتراب والوقت . . . .  
وحصاد هذا المركب من نظم ومناهج وماديات هو ثمرة الحضارة . . . . فالسبب فى الإبداع الحضارى هو ( المركب ) ، وأما ( الحصاد ) أو المخترعات فهى النتيجة والثمرة .

ولا يجوز أن تتقدم النتيجة على السبب . . . أو أن يقفز إلى النتيجة دون أسبابها أو مؤهلاتها .

— ويرى الاتجاه الإسلامى — أيضا — أن ثمة ( حتمية ) فى التاريخ هى ( السفن الكونية الإلهية ) لكن هذه الحتمية لا تشمل حركة الإنسان الفرد ، ولا تكبل حركة الأمة إن قررت السير فى طريق الحضارة ، فالقدرة الاستسلامية لا تحسب على هذا الاتجاه الإيجابى الحركى ، وإنما تحسب على الانعزاليين السكونيين من أصحاب النزعات الوجدانية والباطنية ،

كما أن هذه الحتمية ليست من باب الحتمية الماركسية التي تجعل التاريخ كتلة لا واعية تتحرك قدما بطريقة آلية ، وليس لإرادة الفرد أو الأمة دور فيها ...

— ويرفض هذا الاتجاه الدورة الطبيعية للحضارة التي يقول بها العلاقة ابن خلدون ، فابن خلدون كان يعالج الدول — لا الحضارات — في نظريته ... ونظريته ذات صلة وثيقة بالحتمية التي يرفضها النظر الإسلامي .. والحضارة الإسلامية قادرة على الإفلات من حصار الموت ، وعلى البروز في مواقع أخرى أكثر قدرة على حمل رأيتها والتعبير عن فطرتها وأدق مبادئها ، لأنها ( الحق ) الذي يجب أن يبقى في مواجهة ( الباطل ) ...

ويرى هذا الاتجاه أن خط الأنبياء والمرسلين هو خط الحق والإسلام في التاريخ كله ، والقوى المحاربة لهم هي خط الباطل ... ولا صراع في الحياة إلا بين الحق والباطل .. وأما القوى الأخرى فبينها تعاون وتكامل واستثارة وليس صراعاً ... لا صراع بين الطبقات ولا بين الملاك والعمال ، ولا بين الرجال والنساء ، ولا بين الأجيال ، ولا بين الفرد والمجتمع ... ولا بين الإنسان والطبيعة ... بل هو تكامل حتمي ، حتى ولو لبس ثوب استثارة وتنافس مشروعين ... فهو صراع واجد بين قوى الخير والشر في الكون والحياة ...



ويجب أن ينظر إلى التاريخ من هذا المنظور وحده ...  
وكيف يكون صراعاً ... ولا غنى للمالك عن العامل أو العكس ،  
ولا للرجل عن المرأة أو العكس ، ولا للإنسان عن الطبيعة أو  
العكس ، ... وهكذا — إن هذا الصراع الحاقد العنيف لا يؤمن  
به النظر الإسلامى لحركة التاريخ ، وليس من منهجه في  
شئ... ..



ويؤمن النظر الإسلامى للتاريخ بدور القيادة والبطولة  
والأقلية المبدعة ... إذ ليس في الإمكان أن يكون كل الناس  
عمر بن الخطاب أو صلاح الدين الأيوبي ... وفي الوقت  
نفسه لن تستطيع الجموع أن تسير في طريقها الصحيح إلا  
بالقيادة الواعية المفكرة المبدعة ... وهل يمكن أن يكون  
تاريخنا متألقاً وعظيماً دون نجومه المعروفة أبي بكر وعمر  
وعثمان وعلي وخالد وسعد بن أبي وقاص وأبو عبيدة  
والقعقاع وعمرو بن العاص وعقبة بن نافع وعشرات غيرهم ،  
وإذا وسد الأمر إلى غير أهله من الرعاع والغوغاء فالمضير  
هو التردى والهزيمة ... كما أن الأقلية المبدعة ليست أقلية  
انعزالية مستعالية بل هي من الأمة وللأمة ، وقد صنعتها الأمة  
على عينها وبعرقها ... وعليها — بالتالي — مسئولية تجاهها  
... ومسئولية أمام الله الذي سيحاسبها على دورها الذي  
هيأها له ، ووفر لها وسائله .

والعرب مادة الإسلام . . . وهم ملائكته وأروع  
أجناسه وأنقباها إذا حملوا زابته بإخلاص ، لكنهم أخط  
الأجناس الإسلامية عندما يخونون هذا الدين ويتكزون له  
. . . فهم إما ملائكة بالإسلام وإما جنس منحط غرائزي بغير  
الإسلام . . . ولا طريق لهم في التاريخ إلا هذا أو ذلك

بل لقد استطاع الإسلام أن يزيل العرب من الحكيم  
عندما سيطرت عليهم مفاهيم العصبية القبلية بدلا من مفهوم  
المساواة الإسلامي ، وإن كان الإسلام قد أحدث حركة استعراب  
ضخمة ، لمختلف المناطق التي وصل إليها حملة الإسلام ، ولئن  
كان الإسلام لا يلزم أجداً باعتناقه فقد تعربت جماعات كثيرة  
دون أن تصبح مسلمة ، وساهمت بدور واضح في مجال الفكر  
العربي الإسلامي جنبا إلى جنب مع المسلمين (١) .

ولم ينتشر الإسلام بذاته . . . بل انتشر بسواعد  
مخلصة وقلوب نقية وعقول ذكية وهمم عالية . . . فالتاريخ  
الإسلامي صنعه رجال فاعلون ، ولم يصنعه سكونيون هامدون  
خرافيون . . . وقد عانى صانعو هذا التاريخ مثلما يعاني كل  
البشر وزلزلوا زلزالا شديداً وصبروا على ما امتحنوا به ،  
وكانت العاقبة — بعد الابتلاء والاختبار — للمتقين . . .

وحضارة الإسلام حضارة دعوة حملها التجار والعباد  
والزهاد ، وليس العنف سبيل الإسلام إلا عندما توصل كل  
الأبواب . . .

---

(١) أنور الجندي : الإسلام وحركة التاريخ ص ٤٤١ .

وفي عهد عمر بن عبد العزيز الذي لا يزيد عن عامين  
إلا قليلاً دخل في دين الله أضعاف الذين دخلوا بالمعارك في  
عشرات السنين \*

ولدور التاريخ الإسلامي منظومة خاصة لا علاقة  
لها بالمنظومة الأوروبية ، ولا يجوز أن تقاس عليها \*\*\* فبينما  
كان التاريخ الأوربي يمر بأسوأ فتراته بعد ضياع حضارتيه  
اليونانية والرومانية كان التاريخ الإسلامي يبدو في أفق  
الإنسانية وكأنه شمس متألقه يوشك ضوءها أن يعم الكون  
كله \*\*\*

إن الفترة الواقعة بين سنتي ( ١ - ١٣٢ للهجرة ) -  
وهو تاريخ سقوط بني أمية - أو حسب رأي بعضهم - من السنة  
( ١ - إلى - ١١٤ للهجرة ) وهو تاريخ هزيمة المسلمين في  
موقعة بلاط الشهداء ( بواتيه ) - تعتبر عصر الفتح الإسلامي  
الحضاري الذي امتد إلى أكبر مدى إيجابي في تاريخ  
الإسلام \*\*\* فمن حدود الصين إلى أعماق بلاد الغال (فرنسا)  
ارتفع مؤذن الإسلام بشعاره الخالد ( الله أكبر ) وارثاً للتراث  
الحضاري الروماني ، ومقديماً نموذجاً حضارياً لم تعرفه  
البشرية من قبل ، أكبر خصائصه أنه يمزج بين العلم والدين  
والوحي والعقل في نسيج واحد متكامل غير متنافر \*\*\*

في هذا التاريخ نفسه ( ٦٢٢ - ٧٣٢ للميلاد ) كان  
قاموس أوروبا لا يعرف ما يسمى بالفكر أو العقل أو البحث

العلمي ، بعد أن قضت الكنيسة على كل ومضات العقل السابقة ، وجعلتها هزطقة يرمى مرتكبها بالزندقة ويستحق القتل . . . . وصادرت العقل البشري لحساب الوحي المغلوط . . . .

وإن الفترة الواقعة بين سنتي ( ١٣٢ - ٤٨٩ هـ ) وهو التاريخ الذي يفصل بين سقوط الأمويين وبداية الحملات الصليبية على المشرق . . . . وأيضا قبيله بقليل سقوط طليطلة في الأندلس . . . .

هذه الفترة على ما بها من تفكك سياسي نسبي وظهور عدد من الدويلات المستقلة عن دولة الخلافة العباسية ، كالأدارسة في المغرب الأقصى ، والرستميين في المغرب الأوسط والمدرايين في سجلماسة ، والطاهريين في خراسان والطولونيين في مصر والأمويين في الأندلس . . . . ثم حركة الانشقاق الفكري والروحي والسياسي المتمثلة في الفاطميين في المغرب ومصر . . . . هذه الفترة مع هذه السلبيات كانت فترة ازدهار فكري وحضاري وتنوع في الإيقاعات ونشر للعربية والإسلام بالعقل والكلمة والأخلاق ، وظهور لمدارس الفكر الإسلامي . . . . وبينما كانت مكتبة الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الثالث ( ٣٥٠ - ٣٦٦ هـ ) تضم نحو أربعمئة ألف مجلد كانت أكبر مكتبة في أوروبا تضم ١٩٢ كتاباً . . . . ، وبينما كان المسلم يتوضأ خمس مرات ويغتسل كل أسبوع عبادة لربه . . . . كان الأوربي الناسك يتباهى بأن جسده لم يمسه الماء منذ عدد من السنين !!

هكذا كنا ... وهكذا كانت أوروبا لخمسة قرون ... بل  
لعشرة قرون في الحقيقة ... فكيف تكون دورتنا الحضارية  
خاضعة للدورة الأوروبية ... ولهذا كان بدهيا أن يؤمن الفكر  
الإسلامي المعاصر بأن دورة حضارته ( منظومة خاصة )  
تتقاطع مع الدورة الأوروبية في عصرها الوسيط الذي امتد  
من القرن السادس للميلاد وحتى القرن السادس عشر .



وبإيجاز تلك بعض مرئيات الاتجاه الإسلامي المعاصر  
نحو التاريخ وهي بعض البذور في طريق تكوين تفسير إسلامي  
أصيل للتاريخ والحضارة .

### الحصاد والقويم :

#### أ - تطور في الرؤية والتنظير : -

في البداية ، وقبل مرحلة التنظير للمعضلة الحضارية  
بمنهجية علمية تستفيد من تطور فلسفة التاريخ في العالم ، كانت  
الدراسات تتجه مباشرة للإجابة على التساؤلات الخاصة بسر  
تخلف الأمة الإسلامية وتقدم أوروبا .

وحتى كتاب الأستاذ أنور الجندي الذي أصدر طبعته  
الأولى بسنة ١٣٨٨ هـ ( ١٩٦٨ م ) تحت عنوان ( الإسلام  
وحركة التاريخ - رؤية جديدة في فلسفة تاريخ الإسلام )

بحتى هذا الكتاب الذي يعتبر متأخراً في صدوره ، ومع أن مؤلفه -الكريم جال بناعبر- تاريخنا الإسلامي جولة طيبة إلا أنه قد اتجه إلى هذه الطريقة المباشرة عن (عوامل التأخير ودوافع التقدم) دون أن يقدم الإطار التفسيري-التاريخي لهذه العوامل وتلك الدوافع ، على النحو الذي نراه في مثلاً عند مالك بن نبي أو عماد الدين خليل أو محمد جلال كشيح أو محمود محمد سفر . . . . .

ويلخص الأستاذ أنور الجندي رأيه حول عوامل التحلل والضعف في عالم الإسلام في ثمانى نقاط .

١ - الخلافات السياسية والعصبية وتنازع الرئاسة والجاه .

٢ - الخلافات الدينية والمذهبية والانصراف عن روح الدين .

٣ - الانغماس فى ألوان الترف والنعيم والإقبال على المتعة والشهوات .

٤ - انتقال السلطة والرئاسة إلى غير العرب من الفرس تارة والديلم تارة والماليك والأتراك وغيرهم .

٥ - إهمال العلوم العلمية والمعارف الكونية وبصرف الأوقات وتضييع الجهد فى فلسفات نظرية عميقة وعلوم خيالية سقيمة .

٦ - الانخداع بدسائس المتملقين من خصومهم والإعجاب بأعمالهم ومظاهر حياتهم والاندفاع في تقليدهم .

٧ - الغرور بسلطانهم والانخداع بقوتهم وإهمال النظر في التطور الاجتماعي للأمم .

٨ - الدعايات الاستعمارية التبشيرية (١) .

ومع تقديرنا لهذه المستخلصات الطيبة إلا أن الوصول إليها كان يجب أن يوضع في إطار من التحليل العلمي المتكفي على رؤية عميقة للتاريخ . . . . .

وقد كان المجاهدان الكبيران عبد الرحمن الكواكبي وشكيب أرسلان أسبق في الوقوف عند هذه النقطة ، وقد قدماً فيها عدداً من المقترحات والآراء التي تلتقى بنسبة كبيرة مع ما قدمه الأستاذ الجندي . . . . .

فقد رأى الكواكبي أن عوامل ضعف المسلمين هي جهلهم ولا سيما الأمراء منهم ، وظهور الحكومات المستبدة وحرمان الشعوب من الحرية وتعطيل شريعة الله وإهمال الدين وأنحلال رابطته وتشويهه بواسطة العلماء المدلسين والمؤولين والاقتصاد على العلوم الدينية وإهمال العلوم الطبيعية والرياضية ، والفقير ، وتكبر الأمراء وميلهم إلى المشافقين وعلماء السوء (٢) . . . . .

---

(١) أنور الجندي / الإسلام وحركة التاريخ

ص ٤٧٩ طبع بمصر .

(٢) طبائع الاستبداد .

أما العلامة شكيب أرسلان فقد رأى أن أهم عوامل تأخر المسلمين هي :

ترك المسلمين عزائم القرآن التي قام بها سلفهم ، وإعراض علماء المسلمين عن العلوم الطبيعية وفقدهم أعظم قوة مادية ، والاكتفاء من الدين بالرسوم الظاهرة واللهو بالقشور عن اللباب ، واليأس من رحمة الله وفقدان الثقة في النفس واستخذاء المسلمين أمام الأوربيين وفقد أكثرهم عزة الإسلام القومية ، ومواطاة المسلمين الأوربيين على إخوانهم وخدمتهم إياهم ، وفقد روح التضحية التي سادت بها الأمم الأوربية ، وعدم اقتداء المسلمين بالأوربيين في تأليف الجمعيات والشركات، وفساد الأخلاق عامة وأخلاق الأمراء خاصة ، وفساد العلماء الذين هم القوة المراقبة للحكومات ، وتفوق الأوربيين في العدة وطمعهم في مجاورتهم لجميع بلاد الإسلام وثباتهم وصبرهم وسيرهم على خطط مرسومة يتبعونها منذ مئات السنين ويخيم الجهل على الأمم الإسلامية ، وعدم تجدد برامج التعليم واستيلاء الجمور على الفقهاء ، وكثرة الكلام عن الآخرة مع أن الإسلام دين دنيا وآخرة ، والدعوات الاستعمارية التبشيرية (١) .

بيد أن تطور العقل المسلم في التنظير للمعضلة الحضارية

---

(١) انظر أنور الجندي / الإسلام وحركة التاريخ ص ٤٨١



قد مكنه من تقديم تصور لعملية التطور الحضارى بطريقة منهجية وشمولية . . فليس الأمر فى البناء الحضارى مجرد تقديم اقتراحات أو علاج بعض الأمراض . . . فالقضية تتصل بالكيان الحضارى كله وبرزوحه الهامدة وبياراته الخامدة . . . وعلاج الروح عمل معقد يحتاج إلى توجيه فكرى ونفسى وجمالى وإلى إعادة ارتباط المسلم بالسنن الكونية من خلال عقيدة حضارية قادرة . . . حتى يعرف المسلم موقعه فى الكون ورسالته نحو الإنسانية .

وفى هذا الإطار كان للملك بن بنى — على المستوى التظيرى — فضل كبير ، وكان للمجاهدين من أمثال الشهيد حسين البنا وتلاميذه وعلى رأسهم الشيخ محمد الغزالي والشهيد سيد قطب والدكتور يوسف القرضاوى وغيرهم من أمثال العلامة أبى الأعلى المودودى ، والعلامة أبى الحسن الندوى وتلامذتهما . . . والإمام عبد الحميد بن باديس وجمعية العلماء وغيرهم — على المستوى التطبيقى — فضل كبير أيضاً . . .

ومن خلال هذا النمو النظرى والعملى بدأت الكتابة التاريخية من منظور إسلامى تصل إلى مرحلة طيبة من الرشد . . . فبالإضافة إلى سلسلة مالك بن نبي ( مشكلات الحضارة ) والتي تضم ( شروط النهضة ، وآفاق جزائرية ، وفى مهبط المعركة ، والمسلم فى عالم الاقتصاد والظاهرة القرآنية )

وغيرها . . . بدأت تظهر كتابات الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في منهج الحضارة الإنسانية ونحوها حول مشكلات حضارية ، وكتابات الدكتور عماد الدين خليل جول ( التفسير الإسلامي للتاريخ ) وكتابات الأستاذ محمد جلال كئتك جول ( الغزو الفكري ، والقومية والغزو الفكري ، والماركسية والغزو الفكري ، ودخلت الخيل الأزهر ) وغيرها ، كما ظهرت دراسات الدكتور محمود محمد بشر تحت عناوين ( الحضارة تحد ، وإنتاجية مجتمع ، والإعلام ديكتاتور ، والتنمية قضية ) وغيرها . . . وظهرت بحوث الدكتور عون الشريف قاسم حول ( قضايا البعث الحضاري ) وظهرت بحوث الدكتور عثمان موافي بعنوان ( منهج النقد التاريخي الإسلامي والمنهج الأوربي ) وبحوث الدكتور محمد فرّاد حجازي حول ( البناء الاجتماعي ، والتغيير الاجتماعي ) وبحوث العلامة الدكتور عمر فروخ في التاريخ الإسلامي وتفسير التاريخ . . . وبحوث الأستاذ جودت سعيد تحت عناوين ( حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وفقدان التوازن الاجتماعي ، والإنسان عندما يكون كلا وحين يكون عدلا ) . . . وبحوث كاتب هذه السطور حول ( تفسير التاريخ ) . . . كعلم إسلامي و ( دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ) . . .

وهكذا — وبدون استطراد كبير لا يتسع له المقام — بدأ العقل المسلم يقتحم عالم السنن التاريخية والاجتماعية ، حتى يكتشف من خلال تعرفه عليها التفسير الصحيح للأزمة الحضارية التي تمر بها أمته ، والطريق لعبور هذه الأزمة وكان

هذا - في حد ذاته - خطوة طيبة للقفز بالمنهج التاريخي ودفعه ليلتحم بفلسفة التاريخ التي هي جزء لا يتجزأ من المنهج التاريخي السليم .

ولم يقف الإنجاز - في النظرة الإسلامية للتاريخ - عند هذا الأفق - مع سموه - بل إن ثمة إنجازات تمت على مستوى الكتابة التاريخية المباشرة . . . .

لقد تهاوت في العقل المسلم كل محاولات الانتقاص من شخصية الرسول ﷺ ، ومن خلفائه الراشدين ، وأكدت مئات البحوث الإسلامية وغير الإسلامية أن محمداً هو الأول في التاريخ ، وأن كل ما ظن أنه شهادة ضده هو شهادة له . . . . فحتى تعدد زوجاته كان شهادة له من تسع زوجات مطلعين منه على كل صغيرة وكبيرة - ويستحيل تواطؤهن على الكذب وقد عاش بعضهن بعده نحو نصف قرن وحرمن من الرجال بسببه - ومع ذلك ظلن يعترفن بعظمته ويؤمن بنبوته ولم يتغير رأيهن فيه قط مع أن كل العظماء - كما يقال - يفقدون عظمتهم في بيوتهم مع الزوجة الواحدة . . . . إلا محمداً الذي بقي عظيماً مع تسع زوجات (١) !!

وقد ظفر العصر الراشدي بتقدير كبير وتألقت

---

(١) انظر بحثاً في هذه القضية بعنوان ( شخصية الرسول أمام المقاييس الإنسانية ) للكاتب ( أقي في الندوة الثالثة لتاريخ الجزيرة بالرياض ) .

عظمة أبي بكر وعمر ... وحتى خلاف الصحابة فيما بينهم  
ووصل النظر. التسليم إلى أنه خلاف في سبيل الحق ... المصيب  
منهم والمخطيء كان يبحث عنه .. وقد دعت أبحاث العلامة  
محب الدين الخطيب والدكتور محمد الصادق عرجون هذا  
الاتجاه الحميد ...

ولئن كان الصحابة بشراً على أعلى طراز من البشرية  
الزكية المخلصة - على الرغم من وجود خلافات اجتهادية بينهم  
- فإن النظرة إلى الدولة الأموية والعباسية - من باب أولى  
- يجب أن تكون منصفة ، فتسجل لهم الإيجابيات ، وتسجل  
السلبيات ، وسوف نجد أن دولة بني أمية - مع وجود أخطاء  
- قد قدمت خيراً كبيراً للإسلام ، وكانت - بحق - دولة  
الفتوحات العظيمة - كما أن دولة بني العباس قد نجحت في  
استيعاب الانفتاح الحضاري ، وأبرزت الألق الفكري الإسلامي  
في وجه التيارات الزاحفة من الحضارات المنهزمة ... ووقفت  
في وجه حركات شعوبية وإحادية كثيرة ... وهذا لا يعنى  
عدم وجود أخطاء فيها .. !!

- وقد أنصف الأيوبيون أبطال حطين ...

- وأنصف المماليك أقطاب عين جالوت ...

- ووضعت أصول نظرية علمية للتاريخ العثماني وفضله  
على المسلمين لقيامه في وجه الغارة الصليبية التي كادت تبتلع

المغرب والمشرق بعد قضائها على الأندلس لولا ظهور القبوة  
العثمانية الإسلامية الفتية .

ومع كل العبث والتضليل الذى وقع فى التاريخ الحديث  
فقد نجحت الرؤية الإسلامية للتاريخ فى كشف الحركات  
المعادية التى تلبس شعارات القومية والشعوبية والإلحادية  
والماسونية المستترة والتقدمية والوطنية وكانت — ولا زالت —  
عائقاً دون وحدة العرب وتقدمهم .

— وقد أبرز المنهج التاريخى الإسلامى الدور الأساسى  
للإسلام فى تحرير الشعوب الإسلامية ، ولا سيما فى الثورات  
التحريرية الكبرى كثورة الجزائر ، ووقوف ليبيا ضد الإحتلال  
الإيطالى ، ووقوف الأزهر ضد الحملة الفرنسية وضد مظالم  
الولاية وثورات أندونيسيا ومسلمى الهند ، ودور الأزهر  
والزيقونة والقرويين والمعاهد الإسلامية فى بعث الوعى  
الإسلامى بعامه .

## ب — تطور فى مناهج البحث :

وقد بدأ تقويم شامل للمصادر التاريخية الإسلامية ،  
فوجه النقد لمؤرخين كبار من أمثال المسعودى ( المعتزلى ) وابن  
طباطبا ( الباطنى ) واليعقوبى ( الباطنى ) وابن مسكويه  
( وكان تابعاً لبنى بويه الباطنيين ) وعبد الواحد المراكشى  
( ظلم المرابطين لحساب الموحدين ) وناصر خسرو وابن حوقل  
( لا تجاههما الباطنى ) .

وقد بدأ تطبيق عملي في الكتابة التاريخية لذلك المنهج - الذي كان يحلم به ابن خلدون - فأصبح التاريخ مصحوباً لون من التفسير والنقد الداخلي والانسجام العقلي ، وقد قد المؤرخ المتحيز والمتملق والجاهل ، ورفضت الثقة المطلقة في الناقلين عن طريق الجرح والتعديل . ومع التحام تفسير التاريخ بالعملية التاريخية البحتة ظهر تقدير المؤرخين لما سماه ابن خلدون ( طبائع العمران ) فميز الصدق من الكذب . . . ( فالقانون في تمييز الحق من الباطل في الأخبار بالإمكان والاستحالة أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران ، ونعرف ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه ، وما يكون جارحاً لا يعتقد به ، وما لا يمكن أن يعرض له ) ( ١ ) .

ولا نستطيع - مع تقديرنا لتأثير ابن خلدون - أن ننكر أثر التيارات التاريخية الوافدة مثل كتابات أرنولد توينبي وأوزفالد سبنجلر وغوستاف لوبون وأوجست كونت ورينيه دوبووا ليكسيس كايل وإدوارد جيبون وغيرهم - على ما لديهم من أخطاء - كما لا نستطيع أن ننكر أثر الأفكار المضادة ، مثل الأفكار الماركسية المادية الحتمية عن التاريخ عند كارل ماركس وجورجي بلنجانوف وأفكار فريديرخ هيجل المثالية .

ومع تطور المنهج نظر بعين الشك إلى الحشو المغلوط

(١) مقدمة ابن خلدون ٣٣ طبع بيروت .

الذى يراد جعله تاريخاً ، والمتمثل فى عدد من الموسوعات الأدبية مثل كتاب ( الأغانى ) لآبى الفرج الاصفهانى ، ومثل قلائد العقيان ومطمح الأنفس للفتح بن خاقان والعقد الفريد لابن عبد ربه . . . . . فهى مصادر يؤخذ منها ويترك وأكثرها منحول لا يصور حياتنا الاجتماعية .

وفى العصر الحديث ظهرت أدوار ساطع الحصرى ، وجورجى زيدان وبقية مدرسة المستعربين كما كشفت مدرسة المستشرقين والمدرسة المركسية ، فى العبث بتاريخنا وتحريفه لخدمة الأغراض المحددة .

ويكاد ينتهى التطور فى المنهج التاريخى من وجهة نظر إسلامية إلى عدد من المسلمات التى تمثل إضافة جيدة ، وأهمها :

١ - الارتباط بين العمل التاريخى الوثائقى والعمل التفسيرى الداخلى فى فقه التاريخ .

٢ - تقويم المصادر على أساس الإفادة من منهج المحدثين فى الجرح والتعديل واعتماد القرآن والسنة ( المصدرين الأساسيين ) للتاريخ الإسلامى والتاريخ العام .

٣ - ضرورة أن يجمع المؤرخ وظائف ثلاث ( مؤرخ ، ومحدث ، ومفسر ) .

٤ - الشمولية في النظر التاريخي بين شتى العوامل المؤثرة في الحركة التاريخية من فكر واقتصاد. وحياة اجتماعية وعقدية وسياسية وعسكرية ، فليس بالسياسة وحدها تصنع الحياة ، بل كان للعلماء والصناع والزراع والتجار دور أهم في صناعة التيار الحضاري .

٥ - ضرورة توافر أدوات البحث التاريخي في المؤرخ المسلم من عدالة وضبط وموضوعية وفقه باللغة والعلوم الإسلامية والجغرافيا الإسلامية عبر القرون ، وعدم الحكم إلا من خلال علم مؤكد .

٦ - رصد الغايات العليا الإسلامية وتأثير مبادئ الإسلام في التاريخ العالمي والحضارة الإنسانية .

٧ - إبراز تاريخ الأنبياء باعتباره تاريخ جبهة الحق وهداة القافلة البشرية .

٨ - النظر إلى التاريخ الإسلامي كله على أنه تاريخ كل مسلم ورفض النظرة الشعبوية للتاريخ فتاريخ الهند وأفغانستان والأندلس والمغرب ومصر والشام والجزيرة العربية وأندونيسيا وبقية أقطار العالم الإسلامي وحدة لا تتجزأ .



وبإيجاز . . . لقد حقق الاتجاه الإسلامي تطوراً في الرؤية ، وفي المنهج ، والتحم بآفاق الماضي وآفاق الحاضر ،



وقدم دراسات نقدية جيدة وأطروحات موفقة اتكأت على منهجية سليمة ، بل كان الاتجاه الإسلامى أسبق فى التنظير الفلسفى للحركة التاريخية على مستوى العالم الإسلامى •

بيد أن الخطوات فى طريق كتابة شاملة للتاريخ الإسلامى بمنهج إسلامى رصين تمضى بطيئة وبجهود فردية وما زال التاريخ الإسلامى يتعرض لغارة شرسة من أعداء الإسلام وخصوم حضارته •

ولم يجد الاتجاه الإسلامى الإمكانيات لى يقدم موسوعات تدحض ذلك العرض السيئ الملىء بالسوم الذى تحفل به الموسوعات التاريخية الاستشرافية ودوائر المعارف الغربية والتفسيرات الماركسية لتاريخنا - فضلا عن أن بعض الكتابات التاريخية المخلصة تمتاز بالجمع التقليدى للوقائع ، وبافتقادها إلى عنصر النقد العلمى وبعتمادها على العاطفة والأفكار الشائعة •

- ولعل المنهج التاريخى الإسلامى يتجاوز هذه الأخطاء التى يقع فيها بعض المحسوبين عليه فى وقت قريب بإذن الله •

\* \* \*

وأيا كان الأمر - واقتراباً من مجالات التطبيق التى تدخل بطريقة ما فى التقويم - نقدم بعض النماذج الأصيلة والرائدة فى ميدان البحث التاريخى القائم على الشمولية والتفسير واستخدام التاريخ كعنصر أصيل فى ذاتنا الحضارية ••• وسوف يرد فى ثنايا عرضنا لهذه النماذج ما نأخذه عليها من سلبيات ، وما تحفل به من إيجابيات •••



## دراسة نماذج معاصرة

### النموذج الأول :

### التفسير الإسلامى للتاريخ

بقلم

الدكتور : عماد الدين خليل

نقدم فى هذه الصفحات التالية محاولة رائدة للخروج بتاريخنا من دائرة السرد إلى دائرة التحليل ومن الإطار الجزئى إلى النظرة الكلية التنظيرية .

إنها محاولة الدكتور — عماد الدين خليل — « التفسير الإسلامى للتاريخ » !! وليس لنا أن نتجاهل — ونحن بصدد الحديث عن محاولة الدكتور عماد الدين خليل — رصد الخطوط الأساسية فى « التفسير الإسلامى للتاريخ » إن عماد الدين خليل قد حاول — عبر عديد من الأعمال — أن يغرس بعض تفسير إسلامى للتاريخ مستقى من المصادر الأساسية للتصور الإسلامى .

— ومن هنا ونحن نرى أن وجهى المحاولة نظرياً وتطبيقياً

لابد أن يؤخذ في الحسبان • وكما يجب أن يدرس كتاب –  
« التفسير الإسلامى للتاريخ » يجب أن يدرس فى الكفة الأخرى :  
( دراسة فى السيرة ) وبداخله ( خطوات فى الهجرة والحركة )  
وملامح الانقلاب الإسلامى فى خلافة عمر بن عبد العزيز ،  
وعماد الدين زكى ( على الرغم من وصفه الأكاديمى ) –  
وتهافت العلمانية ( وملاحظة فى التقليد الحضارى ) – وربما  
غيرها فى الدراسات الوجيزة أو الطويلة مما يمكن أن تكون  
قد حاولت بيننا وبينها ظروف الاضطراب الحضارى الذى  
يمر به العالم العربى الآن •

ونحن مضطرون فى تقديمنا لهذا العمل الذى نعتبره  
رائدا فى مجاله ولم تسبقه إلا محاولات يغلب فيها « الإخلاص »  
« والعاطفة » على القدرة التركيزية التى تتطلب عمقا كفييا  
يوجب استيعاب الوعى « الطولى » بالتاريخ العام والوعى  
المكثف بالتاريخ الإسلامى فى أبعاده المختلفة المستويات :  
اجتماعية واقتصادية وفكرية وسياسية •

نحن مضطرون إلى أن نعبّر نحوا من سبعين صفحة من  
صفحات الكتاب الذى يقع فى أكثر من عشرين وثلاثمائة صفحة  
من القطع الكبيرة ••

ففى هذه الصفحات التى وقعت بين « المقدمة التمهيدية »  
وفصول الكتاب الثلاثة المهمة التى تعالج أبعاد ( التفسير  
الإسلامى للتاريخ ) فى ( الواقعة التاريخية ) من جانب وفى

« المسألة الحضارية » التي تمثل حركة الحياة البشرية في إطار الحركة الكونية - من جانب ثانٍ . . . ثم « سقوط الدول والحضارات » كما يرصدها التفسير الإسلامي - من جانب ثالث . . .

في هذه الصفحات السبعين . . . يتناول الدكتور عماد الدين - بالعرض المركز - « التفاسير الوضعية الأساسية » وهي في رأيه ثلاثة :

- ١ - التفسير المثالي ويمثله « هيجل » .
- ٢ - التفسير المادي ويمثله « كارل ماركس » .
- ٣ - التفسير الحضاري ويمثله « أرنولد توينبي » .

ويتتبع الدكتور عرض كل تفسير بنقد يعتمد فيه على معطيات المسيرة التاريخية ، وعلى أولويات العقل . وعلى المصادر التي سبقته لنقد هذه النظريات .

- ولكن السؤال الذي يتبادر إلى الذهن - من الناحية المنهجية - مادما يصدد تعامل مع التاريخ : هل يقتضى المنهج التاريخي أن تنصدر هذه التفسيرات ( محاولة رصده ملامح التفسير الإسلامي للتاريخ ) ؟ أم أن المنهج كان يوجب على

هذه التفسيرات أن تحتل مكانها في مؤخرة الدراسة ، وأن يأتي التفسير الإسلامي - السابق زمانا على الأقل - في صدر الدراسة ؟

ولكى نجيب على هذا السؤال نرى أن نلجأ إلى الدكتور عماد الدين نفسه في كتابه - موضوع العرض - إنه يقول في الصفحة الأولى من المقدمة :

« إن ثمة حقيقة أساسية تبرز واضحة في القرآن الكريم تلك هي أن مساحة كبيرة في سورة وآياته قد خصصت (للمسألة التاريخية) التي تأخذ أبعادا واتجاهات مختلفة وتتدرج بين العرض المباشر والسرد القصصي (الواقعي) لتجارب عدد من الجماعات البشرية وبين استخلاص يتميز بالتركيز والكثافة للسنة التاريخية التي تحكم حركة الجماعات عبر الزمان والمكان مروراً بمواقف الإنسان المتغيرة من الطبيعة والعالم وبالصين الحضارية التي لا حصر لها والتي تتأرجح بين البساطة والنضج والتركيب وتبلغ هذه المسألة حداً من (الثقل) و (الاتساع) في القرآن الكريم بحيث أن جل سورة لا تكاد تخلو من عرض لواقعة تاريخية أو إشارة إلى حدث أو تأكيد على قانون أو سنة تتشكل بموجبها حركة التاريخ » .

فالتفسير الإسلامي حقيقة إذن ... وهو ليس عملاً مفتعلاً أو رد فعل للتفسيرات التي ظهرت مثالية أو مادية ..

وهو — أيضا — ليس جريا لاهثا وراء قضية احتلت مكانها من  
الفكر المعاصر •

بل إن الدكتور عماد الدين خليل لا يلبث أن يتحدث عن  
مأخذ خطير يأخذه على كثير من الباحثين وفلاسفة التاريخ  
المعاصرين الذين وقعوا في خطأ القول :

بأن ابن خلدون هو أول من مارس هذا المنهج وأنه  
لا توجد قبل ابن خلدون أية محاولة لتفسير التاريخ • ومن  
عجب أن ابن خلدون نفسه وقع في الخطأ ذاته عندما أكد في  
مقدمته أنه لم يعثر على أية محاولة في هذا المجال وكان أحرى  
به أن يبين ما يتضمنه القرآن من إشارات تدل على الطريق •

ومع هذا الاعتراف — بالسبق القرآني في هذا المجال —  
فإن الدكتور عماد الدين خليل قد وقع فيما وقع فيه ابن خلدون  
وذلك حين صدر التفسيرات الأخرى بما يوهم أنها أسبق أو  
أنها الأصل الذي يقاس عليه مع أن مكانها المنهجي — في  
رأينا — أن تأتي متأخرة ولمجرد المقارنة التي تكشف عناصر  
الاختلاف ومظاهر السيطرة والجزئية الشديدة المحدودة التي  
حصلت بها هذه التفسيرات. والتي جعلتها أقل (مكانا) •  
ومكانة عن « التفسير الإسلامي للتاريخ » •

وفي هذا المنهج أيضا نلاحظ أمرا يظهر لأول وهلة فإن  
المادة التي اتكأ عليها الدكتور عماد الدين تكاد تنحصر في

« القرآن الكريم » بحيث يبدو وكأنه لا وجود للسنة الشريفة ، مع أن ثمة أحاديث نبوية كثيرة تحدثت عن قضايا تاريخية وكونية واستشرفت آفات المستقبل البعيد مما هو ضروري للتناول عند المعالجة لموضوع : « التفسير الإسلامى للتاريخ » فهل يا ترى ترك المؤلف الصديق « السنة » وتاريخ المسلمين بشقيه الصحيح والمنحرف عامداً لاعتبار رآه ؟ وما هذا الاعتبار؟

وأنا أرى أن الكتاب الذى بين أيدينا أولى به أن يسمى : « التفسير القرآنى للتاريخ » لأن « التفسير الإسلامى » يجب أن يعطى للسنة الشريفة دوراً أساسياً عند رسم كل أبعاد صورة « التفسير الإسلامى للتاريخ » .

وندلف الآن إلى مادة الموضوع :

وفي البداية يطالعنا الدكتور بحديث جيد ومركز عن « الواقعية التاريخية » من الوجهة القرآنية .

« وقد قدم لنا القرآن الكريم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية وحدثنا عن الماضى فى جل مساحته ، لكن ما يلبث أن يخرج لنا ببيان الحكمة من وراء هذه العروض وإلى بلورة عدد من المبادئ الأساسية فى حركة التاريخ البشرى مستمدة من صميم التكوين الحدثنى لهذه العروض تلك المبادئ التى



سماها « سنناً » ودعانا أكثر من مرة إلى تأمها واعتماد مدلولاتها في أعمالنا الراهنة ونزوعنا المستقبلي » .

وعلى امتداد الكتاب الكريم تترى العروض القرآنية مغطية مساحة زمنية تبدأ من آدم وتنتهي بالرسول محمد عليهما الصلاة والسلام .

بل إن بعض الآيات القرآنية لتتجاوز الماضي والحاضر لكي تمتد رؤيتها إلى المستقبل القريب أو البعيد في تنبؤات تاريخية يحيط بها علم الله تعالى المطلق بالصدق الكامل والضمانة النهائية .

ولم يغب عن القرآن الكريم أن يوضح الأسباب التي من أجلها تنزلت هذه العروض التاريخية والإيحاءات المستقبلية . إنها كلها لهدف إثارة الفكر البشري ودفعه إلى التساؤل الدائم والبحث الدائب عن الحق وتقديم خلاصات التجارب البشرية وإزاحة ستار الغفلة والنسيان في نفس الإنسان وتقديم البرهان على الحق الواحد الذي جاء به الأنبياء .

أما النتائج المرادة من هذه العروض فهي الانسجام عن وعى بالسنن والنواميس المتمخضة عن دراسة التاريخ البشري والتمعن في وقائعه وأحداثه ، وفي القرآن الكريم لا تتحدد هذه النواميس ولا تأسر نفسها بتفاصيل وجزئيات موقوتة بل

تمتد برنة منفتحة شاملة لكي تضم أكبر قدر من الوقائع وتلامس أكبر عدد من التفاصيل والجزئيات وتبقى - في النهاية - الحصيلة النهائية والرموز المكثفة والدلالات الكبرى لحركة التاريخ .

إن هذا الركن من أركان بحث التفسير الإسلامي الثلاثة قد اعتمد بصورة مركزية وجيدة على القرآن الكريم في مسألة « الواقعة التاريخية » بحيث نستطيع القول : إن المؤلف قد استعرض الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع استعراضاً شبه كامل وأنه أحسن استغلال النص وكان يتحرك من داخل النصوص بموضوعية ووعي جعلت خطى النص والتحليل يسيران في تآزر دون أن يطغى أحدهما على الآخر .

ومن خلال هذا تتبع القرآني لمسيرة « الواقعة التاريخية » تكشف لنا رؤى ومعطيات أبرزها مجموعة من السنن الكونية التي دل القرآن عليها خلال حديثه عن الأمم السابقة .

ومنها - أيضا - تلمس الأبعاد المسألة الزمنية في القرآن وهي تلك المسألة التي تخبطت فيها الآراء الحديثة منذ بدايات « الدارونية » الأولى بين القائلين بالخلق المباشر المستقل والقائلين بنظرية التطور الطبيعي .

فالقرآن عبر استعماله للبعد الزمني يبين لنا أن الروح الإلهية متجلية في أصل الإبداع لكن لا يبين لنا « سر الروح »

ولا المدى الزمني الذي استغرقته عملية إبداع الكون بالنسبة  
لوعينا البشرى بالزمن وهو وعى محدود جداً في عصرنا فكيف  
بالعصور السابقة ؟ .

لكن الجلى من الآيات القرآنية أن فعل الله كان مباشراً ،  
وأن هذا الفعل يسخر لتحقيق حكمة الله الدافعة في التاريخ  
بقوتين : قوة الطبيعة المادية المتطورة وقوة الروح غير المنظورة ،  
وهذه الأخيرة هي الفرق الجوهرى بين التفسير الإسلامى  
للتاريخ والتفسيرات الوضعية . . إنها « البعد الغيبى »  
( وما يعلم جنود ربك إلا هو ) .

ومما نستخلص من معطيات المسيرة القرآنية في أطوار  
« الواقعة التاريخية » — كذلك — أن للإنسان دوراً أساسياً  
في هذه الواقعة . وهذا الدور هو ما نسميه « بالحرية  
الإنسانية » التى هى فى مداها البعيد جزء من إرادة الله فى  
خلق الأفعال والأحداث .

وفى إطار هذه الحرية تتحرك قوى العقل والإرادة  
والإنفعال والحس والحركة وغيرها من الطاقات التى ركبها الله  
فى الكائن البشرى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما  
بأنفسهم » « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم  
عليهم » وعشرات من الآيات القرآنية التى تؤكد على المستويين  
الفردى والجماعى هذه الحرية المنسجمة — فى الوقت نفسه —

مع الدوائر الكبرى التي تصنعها مشيئة الله وعلمه الواسع المحيط ، وهكذا فإن الواقعة التاريخية تجيء وفق درجات ثلاث : أولاها : ( علم الله ومشيئته ) وثانيها : ( إرادة الإنسان وحركته ) وثالثتها : هي ( المادة الخام ) التي يخضعها الإنسان لإرادته في إطار منسجم مع سنن الله الكونية التي لا تخلف ، وفي حركة متوازنة محكمة الترابط بين دور الفرد ودور الجماعة أي بين النبي والأمة والبطل والجاهل والقائد والجنود وهكذا .

وفي القسم الثاني من هذا البحث يعالج الدكتور عماد الدين الدائرة الأوسع : دائرة المهمة التي خلق الإنسان - أساسيات - لماريتها في العالم والمركز الذي يحتله في الكون إنها ( المسألة الحضارية ) التي شغلت أذهان ابن خلدون وتويني وهيجل وماركس ، وخيل للناس أن هؤلاء وحدهم بهم الذين أظهروا هذه المسألة للوجود مع أننا - كما يقول المؤلف - نستطيع أن نلمس البدايات الأولى للمسألة بالرجوع إلى حادثة « خلق آدم » باعتبارها الزاوية في الوجود البشري بل إن ( المسألة الحضارية ) - ما دمتنا نعنى بهذا الجانب الحضاري ( الفاعل : المبدع ) المواجه لكتلة العالم الطبيعية والمستجيب لتحدياتها - تتخطى حادثة آدم إلى ما وراءية الوجود الأدمي .

أي أن سائر العمليات أريد بها تهيئة العالم لاستقبال

المخلوق الجديد وإحاطة نشاطاته المختلفة بالضمانات ، وذلك إلى اليوم الذي قال الله فيه للأرض وللسماء : ( إئتيا طسوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ) .. وبالتالي ، وفي رأى الدكتور عماد الدين - : فإن التاريخ الحضارى هو : « كل فعل تمتزج فيه إرادة الله وروحه وكلمته بالمادة فتصوغها كتلا كونية أو نظاما طبيعيا أو إنسانا يتولى خلافة الله فى الأرض لإعمارها » .

لكن هل يستطيع أى منهج من مناهج فلسفة التاريخ أن يمد الطرف إلى هذه المرحلة ؟ إن التاريخ الحضارى فى القرآن هو وحده القادر على تحقيق هذه الشمولية فى النظرة دون أن يعتمد على افتراضات لا جدوى منها .

وحيثما انتقلنا فى أرجاء القرآن الفسيحة لمطالعة الآيات والمقاطع الخاصة بخلق الكون وجدناها ترتبط ارتباطا عضويا أصيلا بالدور المنتظر الذى بعث الإنسان ليلعبه - هذا من جانب - ومن جانب آخر بمرحلة تكوين جنين الحياة على الأرض ..

أما المسألة الحضارية - فى جانبها الإنسانى - فترتبط بخلق آدم وبالظروف والدلالات والإرهاصات والرموز التى صاحبت لحظة تعيينه خليفة الله فى الأرض ومجاهته ( بايليس ) الذى يمثل التحدى فى المسألة الحضارية .

ومن خلال « العمل العقلى والجسدى فى اتجاه الإصلاح

أو الإفساد تتحدد نتيجة الصراع الحضارى بين الإنسان والشيطان وميدان هذا الصراع هو كتله العالم والطبيعة التى يدور بينها وبين الإنسان حوار دائم وأبدى . . . هو يسأل دائما وهى تتمتع - إلى حين - فى الإجابة .

« وفى القرآن الكريم مئات الآيات والإشارات تتفخ فى الإنسان هذا المعنى الحضارى العظيم وتعلمه أن حوار مع الطبيعة أن يستمر إلا بالسعى والكسح والحركة » وسواء استمر الحوار بينهما على أساس « النظر الحسى » أو « الرؤية الداخلية » التى هى البصيرة أو « الفكر المجرد » القائم على البراهين والحجج فإن الصورة الفذة التى يطرحها القرآن عن ذلك التناغم بين الإنسان والطبيعة وما وراءها وذلك التوازن بين تسخير القوى المادية وتصنيعها وبين عبادة الله سبحانه وذلك التقابل المبدع بين النزعتين الجمالية والعلمية وهذه المعادلة الواضحة بين جبروت الإنسان وقدرته الفعالة وبين نسبيته وضعفه وحاجته الدائمة إلى الله . . هذه الصورة التى لم يستطع أصحاب المذاهب الوضعية الوصول إلى تصور أبعادها وحصروا أنفسهم فى دائرة محدودة أسموها « الصراع » أو « تحاور النقائص » المتقابلة أو الجدل « الديالكتيك » مع أن هذه الثنائية - وإن صحت لتفسير بعض الجوانب - فإنها - بمفهومها الوضعى - لا تصح لتفسير كل الجوانب .

لكن الصراع - مع ذلك - لا يرفضه الإسلام كمبدأ عام أولى « وكذلك فتنا بعضهم ببعض » « ولولا دفع الله الناس

بعضهم ببعض لفسدت الأرض » ويرى الدكتور عماد الدين أن « هذا الصراع » ممتد في التاريخ « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » - لكن الدكتور المؤلف الذى عمم هذا المبدأ وأخذ على هذه المذاهب حلمها « يوتوبيا » أو « عالم البروليتاريا » الهادىء قد ترك شطرا من الآية « إلا من رحم ربك » وهو أيضا عند هذه النقطة قد طبق على عالم الفكر ما طبق على عالم المادة دون أدنى تفرقة بين المجالين ، ففى رأينا إذا جاز أن يكون الصراع أساسا أوليا من أسس التفسير الإسلامى للتاريخ فإنه لا يجوز أن نستسلم لهذه « القدرية الصراعية » وإلا فإن محاولتنا علاج المسألة الحضارية سيكون من باب « الحتميات » العامة التى تحمل فى كثير من جوانبها جزئيات مقهورة لا تتصوى تحت قاعدة .

وأیضا فإن كثيرا من جوانب «الواقع» - وليس «الفكر» الذى نوافق فيه المؤلف تماما - يمكن أن يدخل تناقضها فى باب «التعاون» الضرورى لاستمرارية الحياة فالصيف والليل والنهار والمرأة والرجل والسالب والموجب والقرود والجماعة : كل هذه الثنائيات وغيرها ثنائيات لا تستطيع الحياة أن تستمر دون وجود أى منها وبالتالي فهى ( متقابلة متعاونة ) وليست ( متقابلة متصارعة ) لأنه لا يستغنى عن أى من المتقابلين فيها وليس كذلك الشأن فى المتصارعين .

وتبقى المسألة الثالثة والأخيرة من تلك المسائل التى ركز عليها الدكتور فى تصوره لإبعاد التفسير الإسلامى للتاريخ

« سقوط الدول والحضارات » وهي في رأينا تشببه أن تكون « حقا تطبيقيا » لرحلة « التنظير » التي سبقت في المجالين السابقين : مجال ( الواقعة التاريخية ) ومجال ( المسألة الحضارية ) .

وفي هذه النقطة تقف الآية الكريمة « وتلك الأيام نداولها بين الناس » كمعلم رئيس في التفسير الإسلامي لأسباب سقوط الدول .

وهذه « المداولة » تستهدف تمحيص « الجماعات البشرية » وإثارة الصراع الدائم بينها وخلق التحديات المستمرة ، وذلك لكي يتم - في النهاية - إفراز حركة دائمة متجددة في التاريخ ترفض اليأس والهزيمة والتشاؤم مادامت الحياة أشبه « بالناعور » الذي يدور في جميع الاتجاهات .

والفرق الكبير بين الموقف الإسلامي وغيره : هو أنه يطرح إزاء مسألة سقوط الدول والتجارب والحضارات ما يمكن تسميته « الحتمية التفاضلية » أي تقزير حتمية الانحلال والسقوط لكي تنشأ دول وتجارب أخرى بمجرد أن تستكثف الشروط اللازمة لذلك وأولها عملية « التغيير الداخلي » . ( إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ) .

وهذا في اتجاه الصعود . أما اتجاه السقوط فإن للقضية أبعادا سياسية واقتصادية وأخلاقية وعقائدية فالقاعدة والقيادات .



— على المستوى السياسى — مسئولية «أكابر مجرميها»  
و « القوم المجرمين » « فاستخف قومه فأطاعوه .. » وعلى  
المستوى الاجتماعى تبدو ظاهرة التناقض بين القول والفعل  
واحدة من أبرز أسباب السقوط « ومن الناس من يعجبك قوله  
فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام  
وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل  
والله لا يحب الفساد » ..

وللمترفين — وظاهرة الترف بعامية — القدح المعلى  
فى الدفع بعجلة السقوط خطوات إلى الأمام كما أن فقدان  
القيم « الأخلاقية » والعزوف عن « الجهاد » — كهدف إيجانى  
حركى دائم — من أبرز الأسباب فى عملية السقوط .



وهكذا .. قدم لنا النموذج الأول ( التفسير الإسلامى  
للتاريخ ) عملاً — مهما كانت ملاحظتنا القليلة حوله — فهو  
عمل دال — كل الدلالة — على مستوى طيب من النضج فى  
الرؤية الإسلامية للتاريخ .



## النموذج الثاني

### العودة إلى الذات

للدكتور على شريعتي ترجمة الدكتور إبراهيم شتا

الصفحات ٣٦٨ صفحة — نشر الزهراء للإعلام

### تمهيد للعرض

كان الدكتور على شريعتي — رحمه الله — من خلاصة المثقفين الشيعة الذين يتمتعون بثقافة إسلامية وعصرية واسعة.

وكان حاصلًا على الدكتوراه من جامعة فرنسية في علم الاجتماع الديني ، وألف نحو مائة وعشرين كتاباً على الرغم من أنه مات عن عمر لا يزيد عن أربع وأربعين سنة .

\* وخلاصة هذا الكتاب الذي نعرض له اليوم — وهو كتاب العودة إلى الذات والذي يمثل خلاصة فلسفة شريعتي — هي أن العودة إلى الذات — وبالنسبة للمسلمين الذات الإسلامية — إنما يمثل ضرورة حتمية يملئها التاريخ وقوانين الحضارة .

المؤلف يجيد الدفاع عن القضية التي يطرحها . . . قضية العودة إلى الذات ، مقدماً فكرة في اتجاه أصيل يخالف به

تماماً تلك التوجيهات الغربية العلمانية أو التوجهات الغربية  
الماركسية •

لكن الإسلام الذي يدعو إلى العودة إليه — على أساس  
أنه ( الذات ) هو إسلام ( معدل ) — كما يقول المؤلف —  
إسلام لحقه الإصلاح ( !! ) وأعيد فيه النظر بوعى ، ومرتكز  
على حركة نهضة إسلامية واعية • إنه الإسلام — كأيدولوجية  
— وهو الإسلام الذي بعث الوعي وأحدث المعجزة في هذه  
المجتمعات ( ص ٣٤ ) •

إن الذات بهذا الوعي هي الذات الإيجابية القادرة على  
الوقوف في وجه التعريب الذي يريد تذويب ذاتنا في ذات  
الغرب ، أو يريد محو ذاتنا في صوفية ميتة كتلك التي توجه  
أغلب المستشرقين اهتمامهم إليها ويحققون كل مخطوطة من  
مخطوطاتها عشرات المرات في حين أن ( ٧٩ ٪ ) من مخطوطاتنا  
العلمية تتحلل وتآكلها الفئران ( ص ٤١ ) أو في تبعية ذليلة  
تجعل كثيراً من مثقفينا يفكر في مصير مجتمعه عن طريق إنفاق  
كل حكاية في قضية الشعر الجديد والشعر القديم والفن للفن  
والسيد يونسكو وجوزيف دي كاسترو وكأنهم يتعاطون  
الهيرويين ••••• ويزيدون به علاج مجتمعه ••••• فبكيت وكاسترو  
لا علاقة لذاتي ولا لتاريخي بهما ••••• بل أنا أنتسب ••••• كمسلم ••

— في رأي المؤلف — إلى أبي دُرِّ ••••• الثوري الإنساني  
ذو المنطق الطبقي ( ص ٤٦ ) •

( كنا نتمنى أن ينتسب المؤلف إلى محمد عليه السلام  
مباشرة ) ( !! ) •

— إن الذات التي يدعو إليها المؤلف هي ذات تتبع  
من ضميم الناس ... هي ذات إسلامية ( نعم ) وهي ذات  
مذهب شيعي ( نعم ) لكن أي تشيع ؟ أهو هذا الذي يعيش  
قومنا على أساسه ويؤمنون به ... لكن لا فائدة منه قط إنه  
من أهم عوامل الركود وعبادة التقليد والجهل وعبادة الأشخاص  
فالمطلوب العودة إلى الذات الإسلامية !!

### العودة إلى أي ذات :

عندما بدأت مسيرة المسلمين فيما يسمى بعصر الاستقلال  
ظهر المصلحون التقدميون يطرحون رؤيتهم للذات المستقلة  
الجديدة ... لقد اختلفوا لنا ألفاظا شبيهة بألفاظ الجن ...  
ولم يحاولوا الارتقاء بشعوبهم بلغة مفهومة بل اشتبكوا مع  
الألفاظ الزائجة المفهومة واعتبروا مصائب شعب جاهل كسول  
هي الحجاب والحية والكرسي ( وسيلة للتدفئة ) وبخبت  
شوهوا حقيقة الحضارة فجعلوها مجرد إنكار الله وإنكار الروح  
والرسول والقرآن وعلى والحسين ثم القومية والأخلاق ...  
وقدموا أبحاثا فلسفية وكلامية سوفسطائية للفلاحين والعمال  
المساكين •

ولم يحاولوا زرع بذور الحضارة الحقيقية ... فقط  
( هدم الإيمان ) ... مع أنهم يعلمون بالتأكيد أن الحضارة  
هي درجة التكامل في القدرة على التفكير واتساع الرؤية وعمق

الروح ولطفها والنضج الاجتماعي وخلق الوعي الإنساني والإحساس بالمسئولية ، ومعدل الثروة الثقافية والقفزات الفكرية والعقائدية واستقلال الشخصية واستعداد الخلق والقدرة على الاستغناء والنقد والاختيار وإيجاد ضمير تاريخي واجتماعي ...

إن الحضارة مزروعة ينبغي أن تبذر بذورها في المدينة ثم تظهر وتتمو ... لكن ( الثوريين - التقدميين ) تجاهلوا - عن عمد بيقين - كل هذا وركزوا جهودهم في تخريب الوجدان والروح وإعلان حرب دائمة على كل ما هو غيبي وكريم وأخلاقي في حياة الإنسان !!

لقد نسي الماركسيون - عن عمد أو بلاهة - ( وكلاهما خيانة ) ما يقول به فرويد ويونج - بحق - بأن لكل مجتمع ما يسمى باللاشعور ( وهو غير الوجدان الاجتماعي بل هو يعنى خصوصيات المجتمع المغروسة من رحلة في التاريخ ... فليس المجتمع مجموعة أشخاص - في الحقيقة - بل هو ( شخص إنسان ) والأفراد خلاياه ( والمفكر شريعتي يفضل هنا استعمال كلمة ( جماعة ) بدل مصطلح ( مجتمع ) - ويفضل مصطلح ( قدر التاريخ ) بدل مصطلح ( حتمية التاريخ ) وهذا المجتمع ( الجماعة ) يخضع لوجود قوانين مسلم بها يستند عليها كل مجتمع ... لكن المؤلف لا يؤيد خضوع كل مجتمع أو أمر اجتماعي أو تاريخي وتأويلهما على أساس

القوانين الكلية والأحوال العامة لعلم التاريخ أو علم الاجتماع  
ويعتبر ذلك من المتعميم العام الخطر ونظرة كلية تؤدي إلى  
منزقات ...

والحقيقة أن ( شريعتي ) تخط عند هذه النقطة ، فهو  
خلال صفحتين فقط يتناقض غير مرة بين الإيمان بالقوانين ،  
وبين عدم الإيمان بتطبيقها ( ٧٢ - ٧٣ ) ومن هنا - والكلام  
لشريعتي - فإنني ( مع إيماني بالوجود العلمي الذي يعرف  
باسم التاريخ أو الأجماع أي القوانين الثابتة والكلية التي  
يحيا المجتمع الإنساني على أساسها ويتغير أعتقد أن تأويلها  
أي تطبيق هذه الأصول والمعايير الكلية الموضوعة سلفاً - ولو  
وضعا علمياً - على مجتمع معين يستوجب أن لا نعتبر أن  
هناك أوجه نقص على الإطلاق فيما نسميه فلسفة التاريخ  
( ..... ) وكما واجهتنا ظاهرة عميقة جداً ولا سابقة لها نقوم  
بتجريفها بشكل ما حتى تكون قابلة للتطبيق والتعليل مع  
موازينها ) ( ص ٧٣ ) ..

ولم يستطيع شريعتي أن يعي أن الأمر ليس كذلك ، وأن  
علم فلسفة التاريخ ( وأنا أستعمل كلمة علم عن عمد وسبق  
إصرار ) ليس أرقى من فلسفة الطبيعة ، وبالتالي فاكتشاف  
ظاهرة جديدة لايجوز أن يؤدي بنا إلى تجريفها لنخضعها  
لقوانيننا الصارمة بل يجب أن يؤدي بنا إلى إلقاء نظرة جديدة  
للقوانين التي بين أيدينا ، وغربلتها وتعديلها وإضافة حلقات  
جديدة إليها .. ولا تعني الحتمية التاريخية - من وجهة  
نظرنا الإسلامية - ( وأنا أؤيد شريعتي في استعمال مصطلح

قدر التاريخ ( القانونية ) التي لا نسبية فيها ، فمثل هذه القوانين لا تزال أبعد من طموحات العلوم الإنسانية ، بل والطبيعة أيضاً في التطور الأخير . . . . وأيضاً . . . من وجهة النظر الإسلامية في تفسير التاريخ — ستبقى نسبة — دائماً — للفعل الإلهي المطلق لا يستطيع العقل البشرى اختراق أسوارها . . . . لأن اكتشاف كل مفاتيح الحركة الكونية أو التاريخية لا يتناسب مع الطاقة الإنسانية . . . بل هي ليست في حاجة إليه . .

لقد توسع كم المعرفة وكيفها — بيقين — في الحقبة الأخيرة ، ولا سيما في القرن التاسع عشر ، لدرجة أن ما طرح من فلسفات التاريخ قد امتد أيضاً ، فكثرت لدينا المعلومات عن فترة ما قبل الحضارة ( ولا أقول ما قبل التاريخ — كما يقول شريعتي احتذاء منه بملك بن بنى ) ، كما أن علم الآثار وعلم الإنسان ( الأنثروبولوجيا ) قد أمدانا بفيض كبير من المعلومات المتصلة أوثق الصلة بالعملية الحضارية . . . لقد تمزق رداء حتمية الماركسية . . . واقتربنا من الإيمان العقلي الكامل ( بقدر الله ) أو القدر التاريخي الذي يؤمن ( بحتمية نسبية ) . . . وقد تهاوت كل أطروحات وتنبؤات الماركسية ، ولم يعد ثمة أمل في سقوط ( الإمبريالية ) بل الأمل الأكبر الآن هو في تكيف الماركسية مع كثير من معطيات التقنية والحرية الليبرالية . . هذا بالإضافة إلى اهتزاز الأسس العلمية للمادية بعد ظهور نسبية أينشتاين وقانون ( عدم الحسم ) في الفيزياء



الحديثة وحساب الاحتمالات والأعداد العظمى في الرياضيات  
وتعميمها في العلل الإنسانية ..

إنه — بعيداً عن أية مدرسة اجتماعية أو أيديولوجية —  
فلا بد أن تتوافق أسس مشتركة لطريق عوثنا إلى ذات واعية  
فاعلة ..

وأهم هذه الأسس ( كما يراها شريعتي ) هي : —

١ — إن الوعي الاجتماعي اليقظ لقلب الأمة وضميرها  
هو الأساس ، وبدونه سوف تبقى كل حركة عقيمة ومجردة ..

٢ — إن الناس فحسب هم الذين يستطيعون تحرير  
أنفسهم ، وينبغي أن تكون قيادة الحركة في أيديهم مباشرة  
... وما لم يصل قلب الأمة إلى الحماس والانفعال التلقائي  
وما لم يصنع الشعب من بينه أبطالاً أو بالتعبير القرآني  
الزجاج ( أميين ) وما لم يقدمهم إلى صفوفه الأولى ، فلا أمل  
في التغيير ..

٣ — ضرورة الإيمان بأن الفقر أو الظلم وحده ليس  
تسبب الثورة بل الإحساس بهما هو أساس التغيير ، ومن هنا  
فيجب تغذية هذا الشعور ( ص ١٠١ ) بقصر ) ..

### الحتمية التاريخية والإنسان

بالطبع .. الحتمية التاريخية عندما تفهم على أنها مرادف  
للقضاء والقدر — بالطريقة الكونية الاستسلامية — فإن السلبيّة

ستكون هي النتيجة الحتمية .. لكن الإنسان هو الذي يستطيع بقدر نضجه وتصميمه - أن يفرض إرادته على إرادة التاريخ ( وإلى هذا القدر ونحن نتفق مع شريعتي ) ( انظر بتصريف ص ١٠٢ ) لكن هناك ملمحاً كان من الواجب إيضاحه ، فثمة نوع من الجدلية الرائعة بين الإنسان ( البطل ) والتاريخ .. فهو - أي الإنسان - يستطيع أن يقف في وجه التيار التاريخي أحياناً وكما أنه يحاور الطبيعة ويسخرها في عملية إبداع رائعة تحرسها ( سنة الله ) - فكذاك يستطيع الإنسان القيام بهذا الدور مع التطور الاجتماعي والتاريخي ... وسيحصل على نسبة نجاح هي النسبة نفسها التي تقصل بين الحتمية التاريخية النسبية وبين ( القدرية الإلهية ) المطلقة ... لقد كنا نأمل أن يبرز شريعتي هذه الحوارية الرائعة ...

وفي هذا السياق نفسه ( ص ١٠٢ ) نحن لا نؤيد شريعتي في هذا التعميم الذي يطلقه على تاريخنا الإسلامي ، حيث يلتقي ( دون رغبة منه ) مع أعداء هذا التاريخ .. وما كنا نأمل أن نجد عبارة مثل ( البيئة السوداء المظلمة لعصر الخلافة وعصر المغول ) مشحونة بكل هذه الألفاظ الداكنة عن ( عصر الخلافة ) .. دون أن يحدد لنا أية خلافة يقصد ؟ هل هي خلافة الأمويين الذين نتمنى أن لا يكون له موقف ( أيديولوجي ) منها لخلفيته الفكرية والذاتية ( !! ) أو خلافة العباسيين ؟ أو العثمانيين الذين نحمد شريعتي أنه مدحهم ، وأنه كشف

حقيقة دور ( الصفويين ) الأثم تجاههم ( حماية لأوروبا من  
الزحف العثماني ) ( انظر ص ١٢٢ ) وبالتأكيد فأنا أستبعد أن  
يقصد عصر الخلافة الراشدة ( !! ) ...

إن هذا التعميم ( الظالم ) - بالتأكيد - لا يجوز أن  
يصدر عن شخصية ( واعية ) بدور التاريخ التحضيري ، مثل  
شخصيته على شريعتي !! - ومرة ثانية نجد ( شريعتي )  
يحاول - لشغوره ربما بعدم الانسجام الذي ألغنا إليه  
وأسميناه تناقضاً في فهمه لحتمية التاريخ - يسرد علينا تفسيره  
مرة ثالثة أو رابعة - لحتمية التاريخ ، مقترناً - في الحقيقة  
- إلى أقرب نقطة صحيحة وصل إليها - في تفسيره لهذه  
الحتمية ( ص ١٠٣ ) مشيراً إلى أهمية عنصر ( العِلْم  
والخلافية ) كعنصرين مساعدين في تغيير الإنسان لحركة  
التاريخ .

ويعود - شريعتي - ( دون أن يتدخل المترجم ) ليكرر  
المبادئ الثلاثة ( انظر ص ١٠١ ، وص ١٠٥ ) وهي مبادئ  
الوعي الاجتماعي ، ودور الأمة كمجموع ، وأهمية الإحساس  
بالكوارث وهي المبادئ التي يراها ( شريعتي ) أساساً لعملية  
التغير والفاعلية ... وكلها تعود إلى تعميق دور ( الوعي )  
الذي يسبق مرحلة التغير .

### الإحساس بالماضي والتغريب :

إن خطوة عملية التغريب لا تتمثل فقط في التشبه في  
الملابس أو العادات أو سلوكيات المرأة ... بل تتمثل في

( م ٥ - فقه التاريخ )

جماعة المثقفين الذين يفترض أن لديهم فكرا ، فاغتراب هؤلاء هو سبب الكارثة ( القومية ) ( !! ) والشلل الاجتماعي ، ذلك لأن الفئة الأولى من البشر الذين صاروا ( أشياء ) فإن الأوربة عندهم في الجسم ، أما الفئة الثانية فهم ( فكر ) وعندما يشل الفكر ويفقد القدرة على التحليل والاختيار ويتحول إلى صورة ( مستملى ) للآخرين فالأمر مصيبة ( !! ) وعن طريق إلغاء هؤلاء المثقفين لأنفسهم ، وإنكاره دوره في التاريخ واحتقار كل ما يمت إلى ذاته ، والفرار من كل ما يذكره بماضيه ، والتشبه بالآخرين ، يبحث لنفسه عن شخصية جديدة وصفات جديدة وقيم جديدة ... ولهذا كان هم الاستعمار تخلية الأمم ذوات التاريخ العميق والثقافة العالمية من محتواها وفصلها عن تاريخها بواسطة الحيل العلمية وعلم الاجتماع المعقد الذكي ... حتى يصل بالمثقفين إلى هذه المرحلة الخطرة .... أى مرحلة ضياع ( الأنا التاريخي ) والذوبان في ( الهو الأوربي ) ... فمثل هذه المخلوقات ( الجديدة ) المفرغة من ماضيها وجذورها وقيمها — إذا ما فقدت التقليد للأوربي — والتشبه به — تصير وجوداً فاقداً للماهية .. لأنها فقدت وجودها الحقيقي وانفعالاتها الأصيلة ... ومثل هذه المخلوقات التي فقدت نفسها لا تستطيع أن تقوم بدور في حضارة أمتها .. لأن الإنسان وليد التاريخ والشخصية الإنسانية للفرد هي مجموعة الخصائص التي استمدتها من تاريخه .

والشعوب التي فصلت عن تاريخها تدهورت إلى مستوى الأمم الفاقدة للحضارة والثقافة . ( ١١٥ - ١١٦ ) .

إن الاستعمار لكي يستطيع خلعنا من ماضيها لنكون في  
( العراء ) يروج بيننا خطورة ما يسميه ( بالتعصب ) لكي  
ننفتح على تراثه وحضارته ونترك ولاعنا لحضارتنا ونصبح  
عصريين مستهلكين ، وقد كان جمال الدين الأسد آبادي  
( ص ١٣٣ ) ( بل هو الأفغانى - راجع محسن عبد الحميد  
ومحمد عمارة ) يدرك خطر لعبة العصرية قبل قادة آسيا  
وأفريقيا التقدميين كلهم . . . ومن هنا وقف ضد تأسيس  
( بنك أمريكي ) وضد صور العصرية الاستهلاكية التي تحول  
المدن الإسلامية إلى قصور فخمة وعمائر ومطاعم ومقاه  
ومحلات فخمة ، وتصبح المدينة مخزناً دولياً للسيارات ،  
ومعرضاً عالمياً لسيارات آخر موديل وأجهزة التلفاز والبلاجات  
ومؤسسات الزينة والنوادي والحدائق الأوربية الشكل . . .  
هذه ( العصرية ) الجاهزة تقدم للمسلمين والعرب البسطاء  
بديلاً للحضارة والتحديث الصحيحين اللذين يعبران عن  
النضج الثقافي والمعنوي في المجتمع وفق خطط وتضحيات  
وصبر وألم وأيديولوجية ورؤية كونية متحركة وإيمان ووسائل  
وحدة في المجتمع ( ص ١٤٣ ) .

— لقد ظن البعض أن الفلسفة والثقافة والعلوم التقنية  
والآداب والفنون هي التي تصنع الحضارات ، وهم في غفلة  
عجيبة ، فلقد وضعوا المعلول مكان العلة . . . فهذه الأمور  
( نتيجة ) حتمية للحضارة الحقيقية . . . ومواد الحضارة  
ومعماريوها هم قادة الحركات الذين يكونون غالباً ( أمين )  
لكن لهم رسالة اجتماعية ( ص ١٤٦ بتصرف ) . . . وقد يكونون

مثقفين ، لكنهم من القلة المفكرة التي تملك وعيا سياسيا واجتماعيا وتحس بارتباطها بمصير المجتمع وتهضم قضاياها الاجتماعية وحضارته !!

إنه المفكر ( قبل أن يكون مثقفا ) الذي يعرف مجتمعه معرفة حقيقية ومباشرة ويحس بالأم عصره وحاجته ومثله ، إنه الذي يستطيع أن يحدد في أى مرحلة من التاريخ يعيش مجتمعه أو بعبارة أخرى ماهو ( زمانه الاجتماعى ) ( ص ١٥٦ ) !!

### الاتحاد الاستعماري الرأسمالي الشيوعي

في الحرب العالمية الثانية تزوجت الرأسمالية الشيوعية، ووجدنا بعد قليل إيدن المستعمر وبن جوربون وجى موليه الأستراكي يقومون بحملة واحدة . . . ووجدنا أمريكا وروسيا — نتيجة هذا الزواج الحرام — يفرزان لنا ابنة غير شرعية نتيجة للزنا الذي حدث بينهما في الحرب الثانية هي ما يسمى ( بإسرائيل ) التي يرهاها الطرفان على السواء حتى اليوم . . . وبنشاط غريب وذكاء رأسمالي مشترك وبروح المسالمة والتعايش الذي تعانقته الشيوعية والرأسمالية . . . فتصالحت الأطروحة وعكس الأطروحة وصارتا يداً واحدة وفكراً واحداً . . . والشيوعية والرأسمالية كلتاها تضع فمها في مخلاة البورجوازية . . . المخلاة الملتية من خراب الشرق ونهب آسيا وإفريقيا ( ص ١٦٢ ) . . . لقد يئست الشيوعية من صحة نبوعها بانهايار الرأسمالية ، ولم يعد أكثر الماركسيين تفاؤلاً ينتظر على الأقل ( كما يقول شوارتزر ) في المائة سنة القادمة

حركة ثورية في البروليتاريا الأمريكية .. وبالتالي اضطرت  
الشيوعية بأى مهر من فضلات الرأسمالية وقبالت السفاح !!

وهكذا فالرأسمالية والشيوعية لم يعودا يختلفان  
( أيديولوجيا ) بل يختلفان فقط على تقسيم نحاسنا وأرضنا  
وبترولنا ...

إن الماركسية فقدت ( ذاتها ) من زمان ، حتى المشهورون  
بغلاة الماركسية هم قوميون أكثر منهم ماركسيين ، و ( كاسترو )  
قومى قبل أن يصير شيوعياً .. والشيوعية ستار يتلفح به  
لحماية كوبا من الذوبان فى ساعة فناء ، أى فى مواجهة أكبر  
قوة فى التاريخ حسب علمنا ... ( واسألوا سارتر نفسه عن  
حقيقة كاسترو وقارنوه بسوكارنو وبن بيل ونكروما ولومومبا  
.. فهم شيوعيون ( مهنة ) لا عقيدة ... لكى يقفوا ضد  
الاستعمار ... ولقد وقف ماركسيو فرنسا مع احتلال فرنسا  
للجزائر باسم ( القومية ) ..

إن الإسلام هو ( قوميتنا ) وهو الذى يستطيع أن يقود  
( بسبب روحه السياسية والثورية الخاصة ) ( شريعتى ١٨٩ )  
بل ويتعهد بتحقيق رسالتين اجتماعيتين : إيجاد الرباط الثقافى  
المباشر للذات وملء الفجوة بين عوام الناس وخواص المفكرين  
ومن ثم فهم الواقع كما هو وإخضاعه للقيم أى بتغييره وفقها  
... وليس ( بالعلم للعلم ) كما يقول السذج الذين يزيدون  
التفرقة بين الواقع والقيم ، وظنوا علم الاجتماع مثل

.....

الرياضيات الحديثة ... علم بلا أى التزام نحو التغيير  
الحضارى ...

والارتباط بالقيم سيحول دون استثناء هذه الآفة  
الخطيرة المدمرة للمجتمع برؤوسها المخربة الثلاثة : - رأس  
( الشلية ) الثقافية أو المظلة الحزبية أو الأيديولوجية التى  
يحتوى فيها أهل الفكر والأدب ، ورأس التعصب للدين  
( الأنتلجنزيا ) أى الاحتراف الجامعى واحتلال حملة المؤهلات  
الفارغين من الفكر للوزارات والمصالح ... فهذه الرؤوس  
الثلاثة المخربة تقف بالمرصاد لكل مصلح أو مفكر محايد ..  
ومرة أخرى - وأثناء تحليله الرائع - يسقط شريعتى فى  
هاوية الموقف المذهبى المسبق ، فيعمم حكمه ، ويدين ضمناً  
مائة سنة ( تسعين !! ) حكم بنى أمية وستمائة سنة حكم بنى  
العباس .. فماذا بقى من تاريخنا ؟ ( ص ٢٢٧ ) - لكن -  
بعيداً عن هذه التعميمات العابرة - يكشف شريعتى بعلمية  
كاملة - تلك الشركة المتحدة المجرمة الجديدة ... شركة  
الرأسمالية والاشتراكية المتفككة على تقسيمنا والمختلفة -  
لا على مذهبية أو أيديولوجية - بل - فقط - على نصيب كل  
منهما منا ... !! وينجح شريعتى فى تعرية هذه الشركة المتحدة  
علينا كل النجاح .

\* \* \*

يوضح شريعتى جانباً مهماً ... فقضية الميل إلى اليسار  
الإشتراكي أو الليبرالية أو الإلحاد قضايا ليست فى بساطة  
( الكوافير ) أو رفع السروال ... ولا حتى من نوع القضايا



العلمية في الفيزياء والكيمياء والتكنيك الرياضى ، فلها جانبها  
الفكرى والأخلاقي والإنسانى ... ولها ارتباط بالخصائص  
الروحية ونوع الرؤية والضمير والشخصية ( ص ٢٣٤ ) ...

وفي هذا السياق الجميل يسقط شريعتى مرة أخرى في  
إحدى الجزئيات حتى يورد لنا حديثا بلا سند ( وهو مما لم  
نعرفه ) يقول فيه الرسول : ( لو علم أبو ذر بما في قلب  
سلمان لقتله ) ( ص ٢٣٩ ) ( فأى صحابة هؤلاء ) ؟ ولقاومة  
التغريب لا بد من فهم الغرب - فالتغريب كالسم يطرد بنفس  
الترياق ( ص ٢٤٠ ) ... لكن المعرفة المطلوبة هنا هي معرفة  
الثقات ... لا معرفة الأقرام ( وهذا ما لم يوضحه  
شريعتى ) !!

إن مناخ التغريب والعلموية قد ظهر في ظروف لا تمت  
إلى حضارتنا بصلة فهناك الجنوح المضاد للسلوك الكنسى  
الإرهابى والجهاد من أجل طرد الدين من مسرح الحياة  
والمجتمع والعلم ... وهناك - في عالم الكنيسة توجد علاقة  
عكسية بين الدين والحضارة وكانت الكنيسة هي الغطاء  
المعنوى والثقافى لنظام الإقطاع ... ومن هنا كانت العلموية  
... وأين هذا من طبيعة حضارتنا ؟ دعك من رفض الدنيا  
والزهد الكاذب ومحاربة الشعور القومى ( !! ) والاستقلال  
السياسى وتدخّل الكنيسة في كل شىء ... ومن هنا ظهر  
( الثالوث ) الخطير الذى أفرزته العلمانية من خلال حركة  
مقاومة الطغيان الكنسى ... ثالوث ( رفض الالتزام ) لصلته  
بروح الكنيسة ، والاعتماد على المشاهدة ( الحسية ) ورفض

الغيب ( الكنسى ) ( والغرور ) العلمى فى مواجهة الإذلال  
الكنسى السابق ... وهذا الثالث رد فعل واقعى للمهمنة  
الكنسية ، ولا علاقة له بنا لينقله بعض صبياننا •

ونحن مع شريعتى فى ضرورة تحديد ( جغرافية الكلمة )  
( ص ٢٦٥ ) فقد تكون كلمة ( القومية ) معقولة فى المحيط  
الغربى للتخلص من الكنيسة وقد تعطى آثارا سيئة فى المحيط  
الإسلامى ، ومثلها كلمة ( العلمانية وهكذا ... وعلى مفكرينا  
تحديد جغرافية الكلمة وإطارها التاريخى حتى لا يتورطوا فى  
نقل أعمى يضيع كثيرا من الخطوات ... بحركة عمياء غير  
واعية بالجغرافية والتاريخ .. ) !!

وهكذا .. يقدم لنا ( النموذج الثانى ) عدداً من  
الإضافات فى حقل الرؤية الإسلامية للتاريخ •

## النموذج الثالث

تأليف د / محمود محمد سفر

### الحضارة تحدد

جدة : تهامة ، ١٤٠٠ هـ ، ١٣٨ ص٠

#### توطئة :

منذ طوى ( مالك بنى نبى ) — المفكر الإسلامى الجزائرى — آخر صفحاته ، راحلا عن عالمنا ، والواقع الإسلامى يعوزه ذلك المفكر الذى يبصر ما وراء عالم الأشياء ، والذى يرد الجزئيات إلى قوانينها ، ويعطى لعنى الحضارة أعماقه الصادقة الضاربة الجذور فى ( الفكر ) و ( التاريخ ) و ( البيئة ) و ( الإنسان ) و ( الزمان ) ...

لا أقول إن الدكتور محمود سفر ، الذى لم أقرأ له إلا ( الحضارة تحدد ) و ( التتمية قضية ) استطاع أن يسد الفراغ الذى خلفه ( مالك ابن نبى ) — لكنى أقول إن الدكتور ( سفر ) استطاع أن يغرس بذورا كثيرة على الطريق ، وأن يكشف لنا — بجلاء — عن أنه يملك « أدوات » المنهج التحليلى ، « القدرة الإبداعية » ، وأنه أهل — لو أمكنه أن يعتزل الدوامه اليومية قليلا — لأن يقدم الكثير ، بل ربما ليسد الفراغ الذى شغل بوفساء العلامة الجزائرى

مالك بن نبي ، ذلك الذي اعتبره الكثيرون — وأنا منهم —  
أقوى « منظر » حضارى ظهر بعد علامة المغرب عبد الرحمن  
بن خلدون ( ٨٠٨ هـ ) .. رحم الله الرجلين !!

### الكتاب منهجيا : —

تغلبنى — أحيانا — تلك الطريقة التقليدية « الأكاديمية »  
على أمرى ، فأنظر للأعمال العلمية التى أتناولها بالمبضع  
نفسه ، الذى يشرح به أستاذ الجامعة الأعمال العلمية  
الرصينة .

ومع أنى أعترف بأن هذه الآلية المنهجية قد تخطأها  
الزمان ، بل إنها قد نالت ما تستحقه من هجوم الإبداعيين ،  
إلا أن الحقيقة المجردة ، تفرض علينا أن نتعرف بأنها لازالت  
— على الأقل — مقياسا ، أو مرآة ، تتكشف بها جوانب  
التسلسل والحبكة والنظام والمنطقية العقلية فى البحث  
العلمى ، فلا خير أن يهمل الباحث المنهجية التقليدية ، لكن  
الخطر أن يظن أنه قادر على أن يهمل معطياتها الضرورية  
الأساسية ، فيهمل النظام والتسلسل والمنطقية . والحق ، أن  
المؤلف ، مع أنه أهمل تلك المنهجية التقليدية ، وآثر منهج  
العلامة مالك بن نبي .. . . إلا أنه لم يهمل الشروط الأساسية  
المطلوبة فى البحث العلمى !!

بل إنبنى حاولت أن أسترشد بالمنهج التقليدى  
« الأكاديمى » فى البحث الذى أعرضه ، وقد وجدت أنه بشيء

يسير من الجهد يمكن أن نضع القضايا التي درسها الكتاب  
تحت فصول مرتبة ترتيباً منهجياً :

— فقضية التحدى الحضارى جوهره ، وديناميكيته ،  
وهى القضية الأولى ، يمكن أن نجعلها تمهيداً — بعد المقدمة —

— وعناصر التحدى الحضارى يمكن أن تكون عنواناً  
( للباب الأول ) الذى يضم أربعة فصول هى جوهر الكتاب •

وهى فصول :

١ — شحذ الفعالية الروحية •

٢ — اسباب حضارة العصر

٣ — تبني أساليب الحضارة المعاصرة أو إبداع  
البدائل •

٤ — حماية المنجزات الحضارية •

أما الباب الثانى ( وهذا افتراض منا بالطبع فيضم النقطتين  
اللتين تناولهما الباحث ... ) وهما :

١ — فكرنا والحضارة المعاصرة •

٢ — قيود البعث الحضارى •

ويأتى الباب الثالث ، لتناول ( الأركان الأساسية للحضارة ) وهى :

- ١ - تأثير الإنسان ( الكثافة السكانية )
- ٢ - تأثير المكان
- ٣ - تأثير الزمان
- ٤ - عنصر القدوة ( مع بعض النماذج )

— ثم تأتى الخاتمة ، وهى ما عنون لها الباحث بعنوان ( بإيجاز ) — وجدير بالذكر أنى لم أغير شيئاً فى ترتيب موضوعات الكتاب ، وإنما أضفت فقط ذلك الهيكل الهندسى ( الأبواب والفصول ) ، وقد وجدت — كما يجد معى القارئ — أن المنهجية مصادرة فى الكتاب ، وأن الباحث قد نجح فى أن يقدم لنا بحثاً علمياً منهجياً ، ومع ذلك متحرراً من كآبة « الأكاديمية » وصرامتها ... !!

### الكتاب شكلياً :

يقع الكتاب فى ثمان وثلاثين ومائة صفحة من القطع المتوسط ، وذلك فى طبعته الأولى الصادرة عام ( ١٤٠٠ هـ ) عن ( دار تهامة بجدة ) وقد طبع الكتاب فى ورق جيد من النوع المصقول وصدر بإهداء ، ومقدمة ، كما زود بعدد من الصور ، وختم بالمراجع العربية والأجنبية ، وبفهرس للموضوعات .

## مع الكتاب :

في مواجهة التحدي الخطير الذي تواجهه أمتنا في العصر الحديث ، ولكي تستطيع أمتنا أن تجد لها مكاناً وسط عالم يقوم على الصراع الحضارى من أجل الحياة والبقاء ، وبتعبير آخر ، في مرحلة الإقلاع الحضارى لأمتنا المسلمة يقف أمامنا سؤال خطير يحتاج إلى إجابة قوية وعملية :

— هل يستطيع مسلم اليوم بما يملك من عقيدة وإيمان وإمكانات مادية أن يعبر الفجوة الحضارية التي تفصله عن حضارة العصر ، وأن يستوعب حضارة العصر ، حتى يكون قادراً على وضع حضارة تحمل هويته وتعبّر عن شخصيته وتفرض نفسها على الحضارات الأخرى ؟

— ويجيب المؤلف على هذا السؤال الأساسى بقوله :

— إننا نستطيع مواجهة هذا التحدي إذا ملكتنا روح المسلم الأول الذى كان يتمتع بقوة العقيدة وعمق الإيمان وصدق العطاء .

وبجانب روح المسلم الأول لابد أن تكون لدينا البصيرة والقدرة على حماية أنفسنا من الوقوع فى شرك التقليد والمحاكاة للحضارة الغربية دون تفريق بين مزاياها ومساوئها . . . .

أما العناصر التي تتفرع إليها استجابتنا للتحدي ، فتكمن فى مجموعة قدرات نوجزها فيما يلى .

١ - القدرة على شحذ الفعالية الروحية للأمة •

٢ - القدرة على استيعاب حضارة العصر استيعاباً كاملاً •

٣ - القدرة على تبني أساليب الحضارة المعاصرة أو اتباع البدائل •

٤ - القدرة على حماية المنجزات الحضارية للأمة •

وفي الصفحات التالية ( ٢٣ - ٤٨ ) يفصل المؤلف القول كل عنصر من هذه العناصر على حدة •

ومادام ( الإنسان ) هو محور العملية الحضارية ، فإن شحذ فعاليته الروحية أمر جوهري • ويرى المؤلف أن شحذ الفعالية الروحية يخضع لعدة عوامل أهمها دور « المنزل » ، ومناهج التربية الدينية ، وبرامج التربية الدينية ، وبرامج الانتماء الوطني ووسائل بثها ، والقُدوة الصالحة وما ترسمه من منهج عملي ••• ولعل المؤلف يقصد من ( برامج الانتماء الوطني ) دور الإعلام ، لكننا كنا نؤثر - عند هذه النقطة - النص الصريح الواضح على دور الإعلام في شحذ الفعالية الروحية ، فلاشك أن دور الإعلام - في هذا العصر أصبح خطيراً كل الخطورة ، بل هو أخطر من بعض الأدوار التي ذكرها المؤلف ، بل هو يستطيع الإسهام في كل الأدوار التي ذكرها ، وهو في المقابل - من الطغيان - بحيث يستطيع - أيضاً - إفسادها كلها •••



وعند هذه النقطة — أيضاً — كنا نؤثر أن يستعمل المؤلف مصطلح ( التربية الإسلامية ) بدل التربية الدينية . . . . وفيما سوى ذلك فنحن نوافق المؤلف في كل ما ذكره بل إنه كان موفقاً غاية التوفيق ، في كثير من جوانب تحليله ، ولا سيما عندما مزج مزجاً كاملاً بين برامج التربية الوطنية ، وبرامج التربية الدينية (!!) ، وأكد ضرورة أن تتكئ الأولى على الثانية ، وأن تتفصل عنها من حيث المحتوى والقيم والنماذج والأمثلة ( ص ٢٦ ) .

ويرى المؤلف أن مهمة شحذ الفعالية الروحية للأمة منوطة بنوعية خاصة . . . « إنها مهمة النفر القدوة المؤمنة بالله وحده إيماناً عقلائياً لا يخالجه شك ولا تحيط به ريبة . . . إنها مهمة النفر القدوة التي تخاطب العقول وتوقظ المشاعر وتضع حلولاً علمية عملية لمشكلات المجتمع ، كي يكون قادراً على مواجهة تحديات الحضارة » ( ٢٩ ، ٣٠ ) وهي أيضاً مهمة الجامعات ( ص ٣٠ ) . . . — وليست مهمة السياسى ( ص ٢٩ )

— وليست هي كذلك مهمة حفظ التراث ، فهؤلاء مشغولون بتنظيم الكتب في رفوف رءوسهم ( ص ٢٩ ) .

وليست هي كذلك مهمة المهنيين المنشغلين بدقائق مهنتهم ( ص ٢٩ ) .

— ونحن في الحق — لا ندري سبباً لاستثناء طوائف معينة من مهمة شحذ الفعالية الروحية — أليس كل هؤلاء من

ذوى « المنازل » ؟ !! وبالتالي ، أليست الفعالية الروحية دعوة عامة يتحمل كل منا نصيبه فيها على قدر حجمه وقدرته ، فلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، اللهم إلا أن يكون المؤلف الكريم قد قصد الحديث عن ( القادة الحضاريين ) فيمكن - عند هذا المستوى - تخصيص طوائف قيادية معينة ... وأيضا فإذا كان بعض حفظة التراث - كما وصف المؤلف : فالحق أن كثيرا منهم لم يكونوا كذلك ، بل كانوا - أيضا - قادة حضاريين ، وفقهاء واعين بالمهمة التاريخية والإسلامية المنوطة بهم ... وبالتالي فلا يمكن استثناء هؤلاء من مهمة القيادة الروحية !!

ومرة أخرى - عند هذه النقطة - كان الأمر يحتاج إلى إشارة واضحة عن دور الإعلام والأدب والفنون في شحذ الفعالية الروحية المطلوبة للأمة في مرحلة إقلاعها الحضارى !!



إن المؤلف يقف أمامنا ثابت المنهج قوى الاستيعاب صاحب رؤية حضارية ممتازة عندما يحدثنا - في النقطة التالية - عن استيعاب حضارة العصر ... فالعلم - بلا شك - هو الأساس الذى قامت عليه حضارة العصر .. ونحن معه ، فى أن مدخلنا نحن المسلمين إلى هذه الحضارة لن يكون إلا بالعلم .. أى عن طريق شحذ الفعالية العلمية - بعد الروحية - للأمة .. ولعل هذا معنى من معانى بداية القرآن بآية ( اقرأ باسم ربك ) !!

وخلال الرحلة من « كبلر » إلى « نيوتن » إلى « آينشتاين » استطاع الغرب أن يخرج من مرحلة « التكديسي » العلمي إلى مرحلة « التقنين » العلمي !!

— وأمتنا مدعوة إلى أن تمر بسرعة — بهذه الرحلة — من خلال استفادتها الكاملة ، ومعاناتها الصادقة ، لعملية الميلاد العلمي ، ومن خلال مزاولتها — أيضا — بين العلوم والحرف المهنية ، وإدراكها أن أرباب التكنولوجيا الحديثة لن يسمحوا بتعليم دقائقها لآخرين ، ( وهذا هو الواقع في عالمنا المعاصر للأسف الشديد ) إننا يجب أن نعي جيدا أنه لن يمكننا الحصول على دقائق التكنولوجيا المعاصرة حتى ولو دفعنا من أجلها المال الوفير !! ( ص ٣٤ ) ..

والمؤلف يصل إلى قمة المواجهة الصادقة لواقع أمته حين يقول لها :

« إن ما يسمى بنقل التكنولوجيا من دولة متقدمة إلى دولة متأخرة هو فرية كبرى صدقتها شعوب العالم الثالث ، وظنت معها أن التكنولوجيا سلعة تبيعها لها الأمم المتقدمة من أجل المال » ( ص ٣٤ ) .

« طريقنا إلى التكنولوجيا الحديثة لا بد أن يمر بمراحل علمية تشبه التطور الزمني في بلاد الغرب » ( ص ٣٤ ) .

« إن الذي يزيد النفس حسرة هو أن شعوب العالم الثالث ما زالت تعيش في هذا الوهم الكبير بعد أن نسجه لها

( م ٦ — فقه التاريخ )

خيال نفر من أبنائها ممن فقدوا صفاتهم ، وافتقدوا بحضائصهم  
أمام انبهارهم بحضارة الغرب وتعلقهم بتقدمه التقنى فانخدعوا  
له وخذعوا شعوبهم به » ( ص ٣٥ ) •

وينتهى المؤلف — بعد إيضاحه لأبعاد هذه الرؤية الرائعة  
إلى أن ( استيعاب حضارة العصر يعنى استيعاب الأصول  
والطرائق والنظم ، أما الدقائق فهذه لا يمكن لأصحاب الحضارة  
منحها وإنما تدرك بالممارسة الواعية والتفاعل البناء ) ( ص ٣٧ ) !!

والأمة المسلمة ، وهى تعالج عملية التطور ، لا بد لها أن  
تملك النظم الحاكمة للهؤوسات الحضارية المطلوبة ، وأن تعنى  
أن النظم الحاكمة لا تولد فتية متكاملة ، بل تبدأ طفلة  
وتتمو مع التجربة والمحاولة والخطأ والصواب •

وأمامها خياران فى هذا السبيل ، أن تتبنى المؤسسات  
الحضارية الغربية مع تعديلها — عن طريق الممارسة والتجربة —  
بما تحقق المبادئ والقيم والأخلاقيات الذاتية ••• ( ص ٤٢ ) •  
( وهذا فى رأينا صعب ) !!

— أو أن تبذل البدائل ( ص ٤٢ ) وهذا فى نظرنا هو  
الحل الحضارى الأمثل ••• ونحن مع المؤلف فى أن عملية  
البدائل يتولاها أهل الاجتصاص فى ظل مراقبة حماة الحضارة  
الفقهية الواعية •

وأثناء عملية المعالجة الحضارية والمواجهة ، وإبداع

البدائل ، يجب أن لا نغفل عن ( حماية المنجزات الحضارية  
للأمة ) بالتركيز على جانبين :

— جانب الحماية الذاتية عن طريق ذات الفرد المسلم  
المواطن المتجاوب حضارياً ، والواعى بسنتن الله في الكون  
وبآفات الحضارة .

— وجانب الحماية الخارجية المنوطة بأجهزة الدفاع  
العسكرية والاجتماعية والدفاع الفكري والنفسي ( ص ٤٨ ) .

وهنا — وعندما نقوم بكل هذه الشروط — تكون رحلتنا  
إلى الحضارة ، منذ الإقلاع ، وحتى الوصول ، رحلة آمنة  
تمشى في الطريق المستقيم .

— في الشوط الثاني من رحلة المؤلف ، بعد أن قدم لنا  
بسطاً طيباً لعناصر التحدي الحضاري للأمة ، يواجه المؤلف  
— معنا — قضية من القضايا الأساسية في عملية الرؤية الواعية  
لمعالجة التحضر . . . إنها قضية ( فكرنا والحضارة المعاصرة ) ،  
ومروراً بتعريفات ابن خلدون للحضارة ، وبما اصطلح عليه  
كثير من المؤرخين من التفرقة بين مصطلحات الحضارة والمدنية  
والثقافة ، على أساس أن الحضارة مستوى معين من الرقى  
تشمل المصطلحين التاليين ، أما المدنية فتختص بالجانب المادي ،  
وأما الثقافة فتختص بالجانب الفكري . . .

— مروراً بهذا كله يرى المؤلف من منظور إسلامي أن  
الالتحام قائم بين هذه المصطلحات ، وأن مدلول الحضارة

مزيج من الرقى فى مجالات شتى كالأخلاق والسلوك والتربىة  
والعلوم التجربىة والبحثة ( ص ٥٠ ) ٠٠

وفى ظل هذا الفهم الشمولى يجب على الإنسان المسلم  
أن يتمسك بمفهوم الحضارة الفكرى الشامل ، وأن لا نفرط  
فى التسلسل المنطقى لإنشاء الحضارة ، أو قل — إن شئت —  
لبدء دورة حضارىة جدىة ( ص ٥١ ) فالفكر هو البدایة ، ثم  
تأتى المدنىة بصور تقدمها المختلفة ، وليس العكس !!

ولیس الفكر المقصود هنا — إلا فكر القرآن والسنة وما  
انبثق عنهما من اجتهادات ونظم وقيم حیاة أصیلة ومبتكرة ٠٠٠  
أما الفكر التراثى بتراكماته الفكرىة والإیجابىة والسلبىة ، فمن  
الضرورى إخضاعها لعملیة غربلة لا تقریط فیها ولا إفراط على  
ضوء قیمة القرآن والسنة ٠ والموقف نفسه يجب أن نقوم به  
فى غربلة الفكر المعاصر ، ومن خلال :

- ١ — القرآن والسنة ٠
- ٢ — غربلة الفكر التراثى ( الماضى ) ٠
- ٣ — غربلة الفكر المعاصر ( الحاضر ) ٠

من خلال هذه المنظومة نستطیع أن نصل إلى الفكر الذاتى ،  
لكى یكون منطلقنا فى البدء الحضارى صحیحاً ومستقیماً  
وشاملاً ٠ ( الصفحات ٤٩ — ٥٥ )

وهنا تبدو قضیة ( جمود الفكر ) من أبرز ( قیود البعث

الحضارى للأمة ) ( وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ) ( البقرة ١٧٠ ) •• ويدهى أنه « عندما تفقد الأفكار ديناميكيته تبدأ النظم فى فقدان ديناميكيته ، وهكذا دواليك لتصل الأمة إلى ما نسميه فترة الانحطاط حيث تتجمد الأفكار والنظم معاً » ( ص ٥٨ ) •

ويتبع هذا الجمهود الفكرى ، ما يسميه المؤلف ( القيود الاجتماعية ) أى صور الجمود ، التى تتجسد فى بعض العلاقات الاجتماعية ، وتعوق الضمير الفردى من الانطلاق وتحدده فى إطار الضمير الاجتماعى ، ولو كان مخطئاً ( ص ٦١ ) ( ومن صور المجاملة والتواكل والإسراف فى الاستهلاك فى المناسبات والأعياد والركون إلى الكسل وعدم إقتان العمل وعدم المحافظة على المواعيد ••• ) ( ص ٦١ ، ٦٢ ) •

وكل هذه قيود اجتماعية ليست من الإسلام فى شىء !!

ويقتضى منّا البعث الحضارى تغييرها ، حتى لا تمنعنا من الانطلاق !!

\* \* \*

والإنسان !!

هو الثروة الكبرى التى يجب أن نحرص عليها فى كل مراحل إبداعنا الحضارى •

وكما أشار المؤلف — سابقاً — إلى الإنسان عند شخذه

الفعالية الروحية والعلمية .. ها هو - مرة أخرى - يعود ليتحدث عن « الإنسان » من زاوية ثالثة ... إنها زاوية ( الكثافة السكانية ) ، وعلى عكس ما يرى المسحوقون فكرياً. يتجه المؤلف صوب الحقيقة الكبرى ، وهي أن ( الكثافة السكانية ) شرط من شروط انطلاقنا الحضارية .. لكن بشرط تحقيق الفعالية الاجتماعية ، أي قدرة الإنسان على العطاء والتضحية من أجل أمته ووطنه « فالكثافة السكانية المثلى سوف تحددها طبيعة العصر ، ولكنها لا بد أن تقع بين قيمتين أساسيتين : قيمة صغرى أي إفراز الكواذر الحضارية المطلوبة ... والقيمة الكبرى أي عندما يصل المنحنى الحضارى إلى حالة تشبع فيصبح هناك فائض بشرى لا تستطيع الإدارة الحضارية أن تستوعبه فيصبح معوقاً لابد أن تتعبه لخطورته أجهزة الحضارة فتعدل من نفسها من أجل استيعابه الكامل » ( ص ٦٤ ) ...

وهنا نصل إلى النتيجة الصحيحة التي انتهى إليها المؤلف : « أن الخطأ ليس في الكثافة السكانية ... وإنما بأن تعدل الإدارة الحضارية نفسها » « ومن الغريب أن نشاهد في مجتمعات نامية من ينادى بإصلاح الأمور عن طريق تحديد النسل بينما الأجدى هو زيادة الفعالية الاجتماعية للفرد » ( ص ٦٦ ) ..

والبيئة ... بعد الإنسان - بما يكمن في أعماقها وبما ينمو فوق سطحها ، تؤثر تأثيراً بالغاً في قيام حضارة وبقاء أخرى ... وللبيئة دورها الجمالى ، عن طريق الضمير الجمالى



الذى ينبثق من المكان بخصائصه ، ويتفاعل مع الإنسان في  
فيرتبطان - معا - برباط وجدانى .

ولقد قامت معظم الحضارات حول الأنهار وفي مناخات  
معتدلة وكان ذلك لازماً للتفاعل الحضارى ، مما يجعل أماننا  
( شرطاً مكانياً ) في عملية التحضر ، وهو ضرورة أن يصل  
التفاعل بين الإنسان والمكان إلى مستوى العصر ( ص ٨٠ )  
لأن هذا يعنى مزيداً من الكنوز والكشوفات . . . والتسخير  
. . . والعطاء .

وكما للمكان تأثيره ( فللزمان ) تأثيره أيضاً . ويتطابق  
عنصر الزمان في عملية تطورنا الحضارى يلزمنا السير بـعدلات  
النمو الزائدة ، عبر مراحل التطور ، حتى نسد الفجوة التى  
تفصلنا عن حضارة العصر . . .

— من مرحلة التكديس التى تتميز عادة بالبطء .

إلى مرحلة الاستيعاب . . . للجوهز .

— إلى مرحلة الإبداع ، حيث تجدد الأمة نفسها وجهاً  
لوجه مع الينابيع الأساسية للإبداع الإنسانى المعاصرة  
وتسرع حينئذ مسيرتها رويداً رويداً . . . فكلما جققت، نصرنا  
زادها ذلك ثقة ورسوخاً . . . فإذا واصلت العمل مدركة لكل  
مقومات ومتطلبات قيام الحضارة فإنها تستصل لا مخاللة إلى  
مرحلة الإبداع ، حيث يصبح معدل نموها « آسيا » متزائداً

ونعنى بالنمو « الأسي » هنا أن يحدث تطور سريع ومبدع في فترة زمنية قصيرة نسبياً إذا قيست بمقدار التطور والنمو الذي حدث خلالها ( ص ٨٥ ) ..

## وأخيراً :

يعرج الدكتور المؤلف على مؤثر آخر في رحلة الإبداع الحضاري ، بعد الفكر والزمان والمكان ... إنه تأثير النموذج البشري في المسيرة الحضارية ..

فعن عودة الأمة إلى الصفحات المشرقة من تاريخها تستطيع الأمة أن تكسب القوة والمناعة ضد أمراض المواجهة الحضارية ، وأيضاً فإن النموذج البشري الفردي أو السلوكي العام يستطيع أن يجعل مشوار التحضر واثق الخطأ عميق المردود ... قادراً على الفهم البصير للحاضر بأحداثه ومنجزاته ، والمستقبل بتطلعاته ، وآماله ( ص ٨٨ ) .

ومن خلال نموذجين بشريين ، أحدهما فردي ، والآخر جماعي تمثل في الجماعة المؤمنة كلها ...

من خلال ( سطلان الفارسي ) كنموذج للسعي الدعوي نحو الحضارة للحقة ، وتخطى كل العقبات الحضارية حتى الوصول إلى مرحلة ثبات الإيمان أمام سائر العقبات ...

ومن خلال ( موقعة بدر ) التي مثلت منعطفاً خطيراً في التحدي بين بقايا حضارة جاهلية متهاككة ، وبين حضارة

إسلامية تعيش مرحلة الميلاد ، وما ضربه الرسول والمسلمون في هذه الموقعة الخالدة الفاصلة من مواقف العظمة ، ومشاهد البطولة ، وأسلوب القيادة ومدى تجاوب الجماعة مع قائدها . . . والتضحية في سبيل المبدأ والحضارة الجديدة بكل قيم الحضارة المتهاكمة وموروثاتها وعلاقاتها وموازينها . . . نقول :

إنه من خلال هذين النموذجين اللذين أفسح لهما الكاتب بحقهما من الصفحات ( ٩٣ - ١١٣ ) نجح المؤلف في أن يعطينا من خلال ( الحركة الواقعية ) النموذج الذي كان تجسيداً حياً للمبادئ النظرية التي قدمتها حضارتنا الإسلامية في هذا الطور من أطوار المبعث ، وإن حضارتنا لقادرة دوماً على إعطاء النماذج وتقديم النداء الحضارى الكافى للجماعة المؤمنة خلال رحلتها في التاريخ .

### وأخيراً :

فإن هذه الهفوات لا تنقص من قيمة هذا العمل الطيب الذى قدمه للمكتبة الإسلامية ولل فكر الحضارى ولأمتنا المسلمة المؤلف الأستاذ الدكتور محمود محمد سفر . لقد جعلنا المؤلف نعود من جديد لنشم عبق فكر أصيل عميق لا تنقصه المنهجية السليمة ولا الرؤية الإسلامية الشاملة بعد أن افترشنا بعد مالك بن بنى تلك البحوث العرجاء وهذه الأكاديمية التى تشبه كما يصفها ( اشبنجار ) عملية مسح

الإحذية • فضلا عن الفكر الدخيل الذي جلب لروح امتنا  
وعقلها من الأمراض ما تحتاج معها إلى أطباء نطاسيين من  
هؤلاء الأطباء الذين يفقهون شروط الحضارة ومشكلات النهضة  
ويستطيعون الوقوف — بوعى وصمود — في مهب المعركة •

## النموذج الرابع

### ودخلت الخيل الأزهر

تأليف / محمد جلال كشك

( منهج إسلامي لمعالجة قضايا التاريخ الحديث )

في أكتوبر ١٧٩٨ دخلت الحقول الفرنسية الأزهر وأعمل  
الجنود الفرنسيون السيف في طلبته وشيوخه ونهبت ومزقت  
مخطوطات عمرها عدة قرون .

ما قيمة هذه الحقيقة اليوم ؟ ألا تكفي هذه المدة الزمنية  
التي بيننا وبين سنة ١٧٩٨ لوأد أية قيمة لهذه الحقيقة  
التاريخية ؟ أولنا نعيش الآن في غزوة أخرى وقد عشنا منذ  
الغزوة الفرنسية إلى اليوم عدة غزوات شبيهة بها ؟

الحقيقة . . أنه كان في الإمكان أن تمر الغزوة الفرنسية  
كما مرت الغزوات الأخرى لكن قدر لهذه الغزوة أن يزتبط بها  
شيء مهم يتعلق به مستقبلنا . . بقضية وجودنا التاريخي  
كأمة وكحضارة .

إن تناول الغزوة الفرنسية — من هذه الظروف بالذات  
— عمل يتعلق بهذه الظروف نفسها ويتعلق بقضية خروجنا من  
هذه الظروف . . وإذا كان للغزوة الفرنسية أثر إيجابي فهو

أنها فرضت على العقل العربى والإسلامى هذا السؤال  
وبالإحاح : -

كيف الطريق إلى المستقبل ؟

وتتصدى للإجابة على هذا السؤال مدرستان •• قد  
أصبحتا واضحتى المنهج والسماث •  
الأولى : هى المدرسة الاستعمارية التى وصلت  
بالأمة العربية إلى حزيران ١٩٦٧ وترى فى ( التغريب )  
- للذوبان فى الغرب - الحل الوحيد •

والثانية : هى المدرسة الوطنية التى حرمت بفعل الظروف  
الاستعمارية الكثيرة من التعبير العملى عن رأيها والتى ترى  
فى « التحديث » إمتلاك كل المعرفة التى يتفوق بها الغرب لإنتاج  
ما تحتاجه أمة من الأمم - الطريق لتحقيق هذا المستقبل •

وبإيجاز فإن المدرسة الاستعمارية ترى ضرورة « شراء  
الحضارة » أما المدرسة الوطنية فترى ضرورة « صنع  
الحضارة » •

وترى المدرسة الاستعمارية أن القومية والتقدم والتحديث  
وللتحرر - لا تكتب معانيها وسلوكها إلا من خلال التعاون  
مع المحتل وبمعونته وإرشاده •

وترى المدرسة الوطنية ( الإسلامية ) أن هذه المفهومات  
لا معنى لها إلا إذا كانت مرتبطة بسلوك وطنى مقاوم للوجود  
أو النفوذ الأجنبى بكافة أشكالهما •

وهكذا تتدرج كل القضايا في خطين واضحين .. الخط الاستعماري والخط الوطني .. ومنذ غزوة نابليون والأحداث كلها تفسر وفقا للانتماء أو للتأثير بإحدى هاتين المدرستين .

ونعود قليلا إلى الخلفية التاريخية التي عاشتها مصر قبل مقدم الغازي الفرنسي بوناپرت .. هل كانت مصر مستعمرة تركية ؟ ولكي نجيب - علمياً - على هذا السؤال لابد لنا من أن نتفق على معنى « استعمار » .. الاستعمار - تاريخياً - حالة معينة من التطور الاقتصادي .. تقف في قمة التطور الرأسمالي .. فهل كانت الدولة العثمانية واقفة في هذه القمة ؟ بالطبع لا .. لقد كانت أفقر من بعض البلاد التي يقال إنها خاضعة لها والعلاقة الرسمية الوحيدة التي كانت تربط مصر وتركيا هي الخطبة للسلطان وحق السلطان في تعيين الوالى .. والوالى الذى لا يملك من الأمر شيئاً والذى كان المماليك والعلماء - بل والعامه - يملكون عزله فى أى وقت ودون إبداء الأسباب ، وقبل الغزوة الفرنسية استقل مملوك فعلا بمصر ( على بك الكبير ) ولولا خيانة زوج ابنته لما استطاع العثمانيون مواجهته .. بل إن المماليك ظنوا أن الغزوة الفرنسية كانت بتقدير من السلطان العثماني وواجهوا مندوبه البائس فى مصر باتهامهم هذا ..

فهل جاء نابليون الغازي لتحرير مصر من الأتراك المستعمرين ؟

أليس هذا القول من اللعب بالألفاظ أو اللعب بعقولنا ؟ من كان يحكم مصر فى ذلك الوقت ؟

إن الممالك الذين ارتبطوا نفسياً مع المصريين  
بميثاق غير مكتوب يتلخص في الدفاع عن حدود  
البلد كانوا هم الحكام الحقيقيين لمصر ، وفي عين جالوت  
ودار ابن لقمان أدى الممالك دورهم في حماية مصر . . فأخذوا  
الخراج وحكموا البلاد . لكن عندما سقطوا في مرج دابق أمام  
السلطان العثماني رفض الفلاحون المصريون دفع الضرائب  
وقالوا لهم :

« وما نعطى الخراج حتى يتبين لنا إن كانت البلاد لكم  
أولا بن عثمان حتى لا نؤدى الخراج مرتين » وقد ظل الممالك  
أوفياء للميثاق حتى عصر مشايخ البلد الذي لمع في قناع  
انخطاطه مراد بك وإبراهيم بك اللذان شكلا طبقة منتصرة  
داخلياً في مجتمعها وغير منتصرة وطنياً ضد العدو القومي . .  
فمنقط ميثاق الشرف من أساسه .

وهكذا كانت السلطة من حق الممالك المطلق مقابل توفير  
الأمن الداخلي والخارجي للبلاد بحكم ميثاق الشرف غير  
المكتوب .

هذه هي الأرضية الاجتماعية التي شكلت عنصر الوجود  
في مصر قبل الغزو الفرنسي . . ولا تدرى كيف فأت الأستاذ  
( جلال ) إبراز الطبقة العاملة في غير الزراعة من غير العلماء  
كالتجارة وأرباب الصنائع الأخرى !! .

الحق أن هذا القطاع كان موجوداً أيام الغزو الفرنسي  
والغزو الانجليزي !!



— ويصل نابليون إلى الإسكندرية ليواجهه هذا المجتمع  
بهذا التركيب •

وعلى الرغم من كل البيانات والمنشورات والتحليلات  
التي صاحبت وأعقبت الغزوة إلى يومنا هذا كان نابليون  
صريحا في تحديد مهمته عندما قال : « سأستعمر مصر »  
انطلاقا لبناء امبراطورية شرقية نابليونية • • ومنذ دخول  
الحملة إلى الإسكندرية — بل قبل دخولها الإسكندرية في  
مالطة — أثبتت أنها حملة بربرية فهؤلاء الذين جاءوا لتحرير  
( المصريين ) من المماليك كان أول ضحاياهم حاكم الإسكندرية  
( المصرى ) الذى رفض الحماية الفرنسية فأعدموه بعد  
التعذيب والحبس والتشهير •

وبهذه الوسائل وغيرها حاول نابليون ( تغريب ) مصر  
والتمسك بالحقبة الحضارية الخطيرة ( الاحتفاظ بالدين  
والتقاليد هو الطريق الوحيد لمسايرة العصر ) •

— وفى ثورتى القاهرة الأولى والثانية طرقتنا بعنف  
أبواب الثورة الصناعية ( التحديث ) من خلال مقاومة المحتل •

— ولأن الحاجة أم الإختراع فقد اضطر المدافعون إلى  
صنع البارود والمدافع وأنشأوا مغللا لإصلاح الأسلحة والمدافع  
ومعملا آخر لتصنيع القنابل إلخ • • ولولا مجيء محمد على  
وانحرافه بالأمة عن الخط الصحيح والسير فى ركب التعريب  
وإثراء الحضارة المعاصرة لتمكنا من الوصول إلى وضع أفضل •

وعندما صب نابليون نيران ( الثورة الفرنسية ) على  
الأزهر كان نابليون الذكى ( الدجال ) يعرف هذه الحقيقة  
أكثر من صبيان المبشرين المعاصرين !!

لقد كان يعرف أنه بضربه الأزهر يضرب قيادة الأمة  
الصحيفة •• يضرب تاريخها ومستقبلها الصحيح •• يضرب  
وجودها كله •

أليس هذا قمة « التعريب » ؟ !!

الحقيقة أن أية أمة من الأمم لابد أن تتوافر لديها  
إرادة التقدم لكي تتقدم ، ولا بد أن يبتل جسمها بالأم •  
وتصطدم بإمكانية الغرق •• فتضطر إلى الاستماتة بحثا عن  
الحياة •

وهذا هو الحل الحضارى الوحيد لمشكلة التقدم ، وهذا  
ما تنتهى إليه هذه الدراسة الأصيلة •

\* \* \*

وكما تجلى لنا فقد ترجمت هذه النماذج الأربعة عن  
المستوى الذى وصل إليه العقل الإسلامى فى رؤيته للتاريخ •

ولئن كنا نعتقد الرؤية التمحيضية النقدية للحركة  
التاريخية الإنسانية العامة تلك التى نبغ فيها أمثال ( أرنولد  
توينبى ، وشبنجلر ) وإلى حد كبير ( ولاديورانت ) فى سرده  
لقصة الحضارة من وجهه نظر أوربية - لئن كنا نعتقد مثل  
هذا اللون الإبداعى فى المنهج التاريخى الحديث نتيجة افتقادنا

للروح العلمية التي تغذيها مؤسسات ، وتذلل صعوباتها  
هيئات وحكومات ، فإننا نعتقد أن الشوط الذي قطعه المنهج  
الإسلامي - ( مع إمكاناته البسيطة ومع الضغوط الفكرية التي  
من شأنها أن تفرض ألوانا من الضبابية في الرؤية والنزوع  
إلى السهولة في العمل العلمي ) - شوط طيب يدعو إلى الأمل  
في رؤية أشمل وأعمال علمية تستطيع أن تقدم ما نستطيع أن  
نقول عنه مطمئنين ومعتزين .. إنه ( التفسير الإسلامي  
للتاريخ ) بكل شموله وأبعاده وربطه الوثيق بين معطيات  
الماضي واستشرافات المستقبل .



## **الفصل الثانی**

**موقف الفكر الإسلامی المعاصر**

**من الحضارة الحديثة**



## توطئة :

إن اللقاء بين حضارتين في بعض منعطقات التاريخ عملية من أخطر العمليات التي يمر بها موكب الحضارة الطويل نسبيًا.

وعندما لا يكون اللقاء متكافئًا ، فإن القضية لا تحتاج إلى معاناة في البحث ، فعالبًا ما تكون النتيجة معروفة ، وهي أنضحاق الحضارة الضعيفة تحت وطأة الحضارة القوية . . . . .  
وحسب الضعيفة أن تترك بصمات على جسد الحضارة الغالبة ، سواء كانت هذه البصمات ظاهرة أم تخفي ظاهرة . . . . .

أما إذا كانت الحضارتان قويتين . . . . . فإن البحث في هذه الحال — يحتاج إلى عناء ودأب ورؤية نافذة . . . . . وقد تكون عناصر القوة مختلفة ، ولكن المهم أن تكون ثقة مشروطة ومؤهلة للبقاء والصمود في كلا الحضارتين ، بحيث يتحقق في فرضة كافية للصراع ، ولا تهزم إحدى الحضارتين في نهاية الشوط . . . . . ولو بعد خمسة قرون — كما سقطت حضارة رومها في رأى جييون ، مؤرخ سقوطها الكبير!!

ولا يستطيع إنسان أن ينكر أن ( الحضارة الأوربية الحديثة ) حضارة من أقوى الحضارات التي أشبهتها التاريخ الإنسان على هذه الكرة الأرضية . . . . .

وعلى الرغم من أننا ندرك أن لكل حضارة (عناصر قوة) ولربما لم تستطع حضارة أوروبا أن تصل إلى ما وصلت إليه بعض الحضارات السابقة حتى في المجال العلمي والبحث فيه، كفن المعمار وعلم التحنيط عند الفراعنة... ومع ذلك فمما لا شك فيه أن هذه الحضارة التي جملتها قد تجاوزت كل الحضارات في المجال العلمي والمادى بأمد طويلة.

إنها الحضارة التي جعلت العالم يبدو (قرية صغيرة) بفضل وسائل المواصلات والإعلام اللذين بلغا شأوا بعيداً لم تتطلم به أكثر الحضارات.

وقد التفت هذه الحضارة التقاءها الأخير بالحضارة الإسلامية على مشارف القرن السادس عشر الميلادي، بعد أن كانت قد هزمت أمام المسلمين قبل ذلك، وبعد أن كانت قد جلست في أدب تنارة وفي دموية تازة أخرى — عند أقدامهم تتلمذ عليهم في العلوم والآداب والفتون، سواء في الأندلس (٩٢٠ - ١٤٩٢م) أم في عدد من جزر البحر الأبيض المتوسط، مثل صقلية وكريت وروندس وتبترجن وبعض مدن جنوب إيطاليا، أم في الجروب الصليبية التي استمرت قرابة قرنين من الزمان.

وقد أدركت أوروبا من هذه اللقاءات — أنها أمام حضارة قوية ذات بقاء روي ومادى قوي، وأدركت كذلك — أن البناء النفسى والفكرى للإمة المتعلمة هو البسر القوي في



صمودها التاريخي ، وفي إفلاتها من محاولات الإيادة التي تعرضت لها — غير مرة — على يد التتار والصليبيين

فلما كان لقاءها الأخير بهذه الحضارة على مشارف القرن السادس عشر كان لديها وعى تاريخي يكفل لها معرفة خصمها الذي سبغت بخوره في الحرب والسلم على السواء . . . .

وبينما كان هذا حال الحضارة الأوربية — كان الأمر على العكس بالنسبة للحضارة الإسلامية ومفكرها . فهؤلاء المفكرون المسلمون في مجموعهم على امتداد القرنين اللذين بزغت فيهما — بوضوح تام — شمس الحضارة الأوربية ، ( وهما القرنان التاسع عشر والعشرين ) كانوا يعيدون — إلى حد كبير — عن معرفة الخصم الذي يقاومونه ، وعن معرفة أسرار قوته ، وعناصرها . ولم يحاولوا باتفاق ولو نسبي — أن يدرسوا الخصم ، وضوا إلى معرفة أفضل أساليب مقاومته . وقد جنحت مواقفهم بالتالي إلى رافضين لهذه الحضارة بالمرّة ، وخيل إليهم أنهم قادرون على دفين آذانهم وأعينهم وبقية حواسهم في الرمال ، وعدم الاعتراف بهذه الحضارة التي يعتبر من أكبر خصائصها قدرتها على الدخول إلى كل بيت . . . . والنفاذ من كل هواء . . . . وللأسف فلا تزال بقية من هؤلاء موجودة حتى الآن !!

وعلى النقيض منهم هناك آخرون راخوا يأخذون الموقف

المقابل فيصطون إلى قاع الحضارة الأوربية متعلقين آذانهم  
وأعينهم بطريقة مختلفة — عن كل دعوة للتقيد أو  
التمحيص ... لقد قبلوا الحضارة الحديثة بالجملة كما رفضها  
الآخرون بالجملة .

وهؤلاء وأولئك مخالفون لشروط الاحتكاك الحضارى ،  
وهم غير واعين بأبجديات الصراع التي يقتضى اللقاء بين  
حضارتين الالتزام بها ، إذ أن الرفض الكامل والقبول الكامل  
إنما هما معاً ( غيبة ) للعقل وعجز عن ( الاستجابة للتحدى )  
وعن ( الحوار الحضارى ) ، وكلاهما معقل لعنصر ( الحدائث )  
التي تعطى الحضارة الأحدث ولعنصر ( التجربة ) التي تعطىها  
الحضارة الأقدم .

— وإذا كان التاريخ في مسيرته الحضارية يترك على  
جانبي الممارك والصراعات والإيجابيات والسلبيات بعض القيم  
والمعطيات التي يجب أن تستقر في وعي الجموع البشرية ،  
وترقى إلى مستوى ( الثوابت ) — فإن الرفض الكامل أو  
القبول الكامل يضيع على البشرية هذه الخصيلة التي تدفع  
البشرية قمتها غالياً ... ولا يجوز أن تهذر بحال من الأحوال !!

وبالتالى فإن هذين الطرفين اللذين واجها الحضارة  
الحديثة لم يمثل الرد الحضارى الموضوعى ... ولقد كان  
( تقيماً ) من أجل الصراخ بين حضارتين متكافئتين — أن

يتداعى هذان الطرفان ( الإسلاميان ) وأن يظهر طرف جديد يحاول أن يقوم بواجب الحوار الحضارى مع الحضارة الحديثة ... وإن صمود الإسلام حتى اليوم ، ومنع هيمنة الحضارة الأوربية منذ أربعة قرون لهو أقوى دليل على أن الحضارة الإسلامية حضارة قوية البناء ، وأنها — على الرغم من إخفاق أكثر أبنائها في مواجهة الحضارة الأوربية القوية — لازالت قادرة على الحوار ، بل إنها بدأت تأخذ — مع هذا الوضع المتردى — زمام التأثير والمبادرة الفكرية والقدرة على الإقناع ...



إننا لا نحاول في هذه التوطئة أن نستوعب فصول قصة اللقاء بين الفكر الإسلامى والحضارة الحديثة منذ ظهرت أوروبا على مسرح التاريخ ، تحاول اكتساح الحضارات البشرية وتسعى إلى فرض صياغتها للحياة وفلسفتها نحو الغيب والكون ورؤيتها الفنية والجمالية بل ولغاتها وآدابها على البشرية كلها .

وإنما نحاول — فقط — أن نمهد الطريق لموضوعنا الأساسى وهو : ( موقف الفكر الإسلامى المعاصر من الحضارة الحديثة ) محددين إطار هذا الموضوع بنطاق العناصر التى تملئها طبيعة الموضوع ، وهى :

١ — الفكر الإسلامى — وهو الطرف الإنسانى الذى

يراد التعرف على ( موقفه ) . . . وهذا الفكر الإسلامى مكون  
— كما نرى — من مصطلحين : ( الفكر ) — أى محسوب  
الاجتهاد البشرى الاحتمالى وليس الوحى اليقينى —  
( والإسلامى ) أى الذى تتكامل له الأساسيات التى توثق نسبه  
الإسلامى . . . . . وبالتالى فهو ليس فكر المستشرقين ، حتى وإن  
اقضل بالإسلام ، وهو ليس فكر الخارجين عن الإسلام  
( المرتدين ) حتى ولو تشبثوا بمصطلح الإسلام وأطلقوه على  
أنفسهم فالانتماء العقدى لا بد وأن يتحرك فى الدائرة  
الأساسية المعتمدة .

٢ — ( المعاصر ) . . . . . والمعاصرة ( وهى العنصر الثانى )  
تحدد النطاق الزمنى للموضوع فى القرن الرابع عشر الهجرى  
( وما يوازيه فى التاريخ الميلادى تقريبا ) ، وهو تحديد يعفينا  
من النظر فى مسيرة القرون الثلاثة التى سبقت ذلك ، وهى  
قرون الالتحام المبكر الذى بدأ منذ القرن السادس عشر  
الميلادى .

٣ — الحضارة الحديثة ( وهى العنصر الثالث ) . . . . .  
ويقصد بها الحضارة الغربية. بجناسيها الغربى الرأسمالى  
( الأوروبى الأمريكى ) والشرقى الشيعوى ( كتلة الاتحاد  
السوفيتى والصين ومن يدور فى فلهم ) . . . . .

وفى هذا النطاق نعالج الموضوع محاولين أن توجز كل  
الإيجاز ، لأن التقاضيل ستبعدنا عن نطاق مغزفة ( الموقف )

وتجربنا إلى نطاق ( التاريخ المجرد ) وهو مالا يتناغم منع  
قضية هذا البحث .

### مناطق الاستيلاء :

إذا نظرنا إلى خريطة العالم الإسلامي إبان القرن  
الرابع عشر الهجري ، فإننا سنجد معظم هذا العالم قد سقط  
أمام ضربات الحضارة الغربية من النواحي السياسية والعسكرية  
على الأقل . فقد ضم الجزء الأكبر من شمال إفريقيا إلى  
فرنسا ، وسوريا ولبنان ، وراحت إيطاليا تنظر بعين الطمع  
إلى ليبيا ، وتمهد لنفسها فيها بكل الطرق ، وسيطرت بريطانيا  
على أكثر البلاد الإسلامية ، وعلى رأسها مصر والسودان  
والهند الكبرى ( باكستان وبنغلادش ) والعراق وإيران  
وفلسطين وشرق الأردن ، وخضعت أندونيسيا لهولندا ،  
وأخضعت روسيا ما وراء القوقاز والبخاريات الأوزبكية  
العظيمة ( بخارى وسمرقند وخيوة وخواقند ) بالإضافة  
إلى منغوليا وأذربيجان وكا شكد والتركستان ، فكان خريطة  
العالم الإسلامي - كما نرى - قد أصبحت تحت قبضة  
الحضارة الحديثة ، ولم يفلت منها إلا جزيرة العرب - بدرجة  
ما - وإلا المغرب الأقصى وما وراءه - بدرجة قلقة أيضاً . . .  
فضلاً عن تركيا التي كانت نفسها تترنح آيلة للسقوط .

هذا من الناحية السياسية والعسكرية . . . أما من  
الناحية العقديّة والفكرية فنستطيع القول أن أوروبا كانت

تحاول الامتداد إلى بلدان العالم الإسلامي . . . . . فبعثيات  
التتصير كانت تسبق الجيوش ممهدة أو تلحق بها موطدة .  
وكانت أساليب التخريب والعلمنة التي يحملها الأوربيون معهم  
إلى كل مكان وصلوا إليه تمتد إلى مناهج التعليم وأساليب  
التثقيف وإلى الاقتصاد والحياة الاجتماعية والثقافية .

ومن الغريب أن العالم الإسلامي أمام الهجمة لم يكن  
يملك أدنى أدوات المقاومة ، اللهم إلا القوة الكامنة في دينه  
وإلا الماضي العظيم المنسب في كيانه والذي يمنحه وقود  
الاستعلاء على الأزمة الخائفة المحيطة به ، وإن لم يكن يحسن  
الإفادة منه أو تمثله في حاضره الأسيف .

لقد كانت حالة هذا العالم أسوأ حالة ، يصورها لنا  
الكاتب الأمريكي المعروف ( ستودارد ) فيقول : ( كان العالم  
الإسلامي قد بلغ من التضعف أعظم مبلغ ، ومن التندني  
والانحطاط أعمق دركه ، فارتدجوه وطبقت الظلمة كل صقع  
من أضقاعه ورجا من أرجائه ، انتشر فيه فساد الأخلاق  
والآداب ، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربي ،  
وانتخرقت الأمم الإسلامية في اتباع الأهواء والشبهوات ،  
وماتت الفضيلة في الناس ، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم  
الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد  
وفوضى واعتيال .

وأما الدين فقد غشيت غاشية سوداء ، فألبنت

الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة الناس سجفاً من الخرافات وقشور الصوفية ، وخطت المساجد من أرباب الصلوات ، وكثر عدد الأذعياء الجهلاء وطوائف الفقراء والمساكين ، يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمايم والتعاويذ والسبخات ( ١ ) .

وهكذا لم يكن لدى العالم الإسلامي أسلحة سياسية ولا عسكرية ولا فكرية ولا عقديّة . . . وكان عليه إما أن يستسلم فيسقط في حضيض الهزيمة الحضارية المدمرة ، وإما أن تظهر فيه أقلية مبدعة وصفوة مجاهدة تستعين بالإسلام في صد هذه الغارة التي امتدت إلى ساحة العالم الإسلامي كله ، وعليها أن تكشف عن جوهر الحضارة الإسلامية الصحيح أمام التحديات الكبيرة .

### المنهجان المرفوضان وتأثيرهما

ذكرنا أننا نرفض المنهجين اللذين وقفنا مثنى الحضارة الأوربية موقفاً مبدئياً صارماً فرفضوها بالجملة وطعنوا في كل ما قدمته . . . أو قبلوها بالجملة وزينوا كل سلبياتها ودلغوا عنها . . . وخولوا مبادئها القائلة محاسن فاضلة .

والمنهجان معاً أضرا بالأمة الإسلامية غاية الضرر ، فقد كان منهج الرفض الكامل للحضارة الأوربية المسئول الأكبر

(١) حاضر العالم الإسلامي ج ١ ص ٢٥٩ (لوثرروب ستوردارد) .

عن تخلف المؤسسات الإسلامية التعليمية منها والاقتصادية والإعلامية ، بل وكان سببا في سقوط الخلافة العثمانية ، وجمود كثير من مرافق الحياة الإسلامية على امتداد العالم الإسلامي كله ، وليس ما عرف في تركيا أو مصر أو الجزيرة العربية إلا نماذج لهذا الموقف الذي وجد له متعصبون في معظم البلاد الإسلامية . . . ولقد كانت تركيا هي أكثر الدول الإسلامية متواجها للخطر الأوربي ، وكان عليها أن تغير نفسها متواجها للخطر الزاحف عليها ، واستيغابا لنقاط قوة الخصم وللمستجدات الحضارية الضرورية للمقاومة ( ولكن زعماء الأتراك الدينيين الذين كانوا صفرا من روح التفقه والاجتهاد للتعاليم الإسلامية الحقيقية أغضوا عيونهم عن كل ذلك التغيير والانقلاب ، وأكروهوا الأمة التركية على أن لا تخرج - ولو خطوة - من حدود البيئة التي سادتهم منذ سبعمائة عام وتبع السلطان سليم السلطان محمود في الحكم ، فحاول الإصلاح ، ولكن العلماء والمشايخ خالفوه مرة أخرى وبتذليل كثير من العوائق والصعوبات تمكن السلطان في سنة ١٨٢٦ م من ترويض التنظيم العسكري الجديد في تركيا . ولكن العلماء لم يزالوا ينادون بأن كل تلك الإصلاحات بدعة سيئة يراد بها تخريب الإسلام ، وأن السلطان قد مرق من الدين وأن التطوع في الجندية من هذا الطراز الحديث مفسدة لإيمان المسلمين .

وكان هذا هو الزمان الذي أحس فيه أهل الفكر من الأتراك بتخلفهم وهوانهم القومي ( ١ )

(١) نحن والحضارة الغربية لأبي الأعلى المودودي ص ١١٢  
طبع بيروت .



لقد كان من جمود علماء الأتراك ( حتى في القرن العشرين الميلادي ) وضيق تفكيرهم ونزوعهم إلى القديم وإيائهم الأكيـد لتسايـرة الزمن ما عهد فيهم أيام السلطان سليم ، فكانوا يقولون حتى الآن إن باب الاجتهاد قد انغلق بعد القرن الرابع ، والحال أن باب الإلحاد الضريح كناد ينفتح أمام أعينهم ، وكانوا لا يزالون يدرسون ويدرسون في الفلسفة والكلام تلك الكتب التي كان الزمان قد خلفها من وراءه منذ خمسمائة سنة وتقدم إلى الأمام ، وكانوا يلقون على الناس مواعظهم ، من ذلك التفسير القرآني وتلك الأحاديث الضعيفة التي لا شك أن الناس كانوا يستمعون إليها بشوق قبل مائة سنة ، ولكنها جاءت تنفر في هذا الزمان العقول الجديدة لأمم أولئك المفسرين والمحدثين فحسب بل من القرآن الكريم وبالحدِيث النبوي نفسه ، ثم إنهم كانوا مصرين على أن تنفذ بين الأمة التركية تلك القوانين الفقهية التي هي مكتوبة في مجموعات الشامي وكنز الدقائق ، وإن كانت نتيجة هذا الإصرار أن يتملص الأتراك حتى من اتباع القوانين الأصولية المنصوص عليها في القرآن والسنة ( ١ ) !

وهكذا كان تأثير المنهج الأول ( الرافض ) مدمراً ، ولعله في تصورتي — وكما أوضح العلامة أبو الأعلى المودودي — المسئول الأول عن سقوط الخلافة العثمانية ، إذ هو السبب الداخلي الذي يسبق في المنظر الحضاري العوامل الخارجية .

(١) : نجن والحضارة لأبي الأعلى المودودي ص ١٧١ .

... أما أصحاب المنهج الثنائي ، فهم هؤلاء الذين لهم  
توافر فيهم أية حضارة ذاتية أو أصالة إسلامية ، بل كانوا  
أشبه بالمراهقين الذين تخدعهم الظواهر ولا يحاولون التعرف  
على سنن الله الكونية في رقى الأمم ، ولا التعرف على الأسس  
الصلحية التي تواجه بها التحديات الحضارية ...

ولقد بلغ من سخافة عقول بعضهم أن دعوا الأمة صراحة  
إلى التبعية الفكرية والروحية الكاملة للحضارة الحديثة ...

ولقد صور أستاذنا الفاضل الشيخ محمد الغزالي هذا  
الوضع (١) حين نقل إلينا ما كتبه أحد هؤلاء ويدعى ( ماجد  
فخرى ) . . . يقول الشيخ الغزالي :

« لقد كتب السيد ماجد فخرى مندداً بالشيخين محمد  
عبد ورشيد رضا ، ومفتداً رأيهما في صلاحية النظام الإسلامي  
لعالمنا الحاضر آخذاً على الإسلام كثيراً من نظمه الاجتماعية  
والاقتصادية . . . وليس هذا يعني بقدر ما يعني ماذا يريد  
الكاتب بعد تحطيمه للإسلام ؟! إنه يقول بالحرف الواضح  
( والكلام هنا لـ ماجد فخرى ) :

إنه يخيل إلينا - نحن الشرقيين - أن الاستقلال عن  
الغرب سياسياً يعني الاستقلال عنه فكراً وحضارياً وهذا -  
أيها السادة - وهم فاضح فالدول الشيوعية نفسها كروسيا

---

(٢) انظر الحافل بتجليل هذا المنهج التعريبي ( ظلام من الغرب

والصين ودول شرق أوروبا مازالت كلها عالة على الغرب في ميدان العلم والفلسفة • ألم يكن حلم بانى روسيا الحديثة بطرس الأكبر نفسه « تغريب » روسيا في القرن السابع عشر » •

ولم تكن آثار هذا المنهج بأقل سوءاً من المنهج الأول ، فإذا كان الأول قد سد الطريق أمام ( الإيجابيات ) التى يمكن أخذها من الحضارة الحديثة ، فإن الثانى قد جلب إلينا ( السلبيات ) فكان المنهجين تعاوناً على إصابتنا بعمى ألوان و ( بالخلط ) فى علاقتنا بالحضارة الحديثة ، فاتجه بعضنا إلى رفض الصالح ، وذهب آخرون إلى جلب الفاسد ... وهذا منهج حضارى غريب سىء العاقبة ، قضى على كثير من الشعوب فى التاريخ ، ولولا الأصالة الذاتية للإسلام ، وموقف المفكرين الواعين لكان نصيب العالم الإسلامى كله المسخ والتشويه الدائمين •

### مرحلة الثقة والنضج : -

مع وضوح الأثر العميق السىء للمنهجين السابقين ، ومع تجاوز فترة ( المفاجأة ) التى ارتبك فىا لتعامل معها كثير من المسلمين الذين سقطوا فى التبعية الفكرية للحضارة الأروبية غربياً الرأسمالى أو شرقيها الشيوعى ، والذين انبهروا بمنجزاتها العلمية ، دون أن يدركوا أن ( المنجزات العلمية ) ليست إلا نتجية ، وأن الحضارة بناء فكرى داخلى ومنهج

للتعامل مع الحياة والكون والإنسان، وخالق الكون، ودون أن يدركوا أن الآلات والمنجزات العلمية قننهم مشترك بين الناس يحتاج لشروط موضوعية خاصة، والأهم في الحضارة — لاستمرارها وازدهارها — ليس هذا الجانب الآلى المشترك والذي يمكن أن ينبغ فيه الرأسمالي والشيوعي والوثني الهنوكي والياباني والمسلم على السواء .. وإنما الأهم (الأسس الفكرية والأخلاقية) التي تقوم عليها الحضارة ..

... أقول .. مع تجاوز فترة (المفاجأة) هذه، وبداية اعتدال الميزان ووضوح البصيرة، بدأت تظهر مرحلة جديدة يمكن تسميتها بمرحلة الثقة والفضج .. وهذه المرحلة قد واجهت الحضارة الحديثة بموقفين جديدين يكمل أحدهما الآخر ...

فأما أولهما، فهو تجاوز مرحلة (الدفاع) إلى مرحلة (نقد الحضارة الحديثة) في أصولها الفكرية والأخلاقية، ليس بقصد التبخيز فيها لرفضها، ولكن لبعث الثقة في الإنسان المسلم وحضارته من جهة، ولتوعيته حضارياً — من جهة أخرى — ليدرك الفرق بين مصطلحين هامين مختلفين كل الاختلاف وهما مصطلح (التغريب) و (التحديث) فلا علاقة بينهما البتة، فالأول يعنى أن غايتنا هي أن نكون أشباه الغربيين حتى في سلبياتهم، والثاني يعنى أن (التحديث) — أى امتلاك أحدث وسائل العصر — هو الهدف سواء جاء التحديث من أوروبا أم من اليابان .. والأول ذوبان وتبعية،

والثاني معاناة وجراع حضارى بين الخصم مع الحفاظ على  
الذات ... وإلا فلو ذابت ( الذات ) فلا جراع ، لأن ( المقلد )  
يمشى على خطى ( المقلد ) ولا يصارعه !!

وأما ثانيهما :

فهو موقف ( البناء الذاتى ) لحضارة ( إسلامية حديثة )  
تستخدم كل معطيات العصر ووسائله وفنياته وكل ما يبيحه  
الشرع ، وتحافظ فى الوقت نفسه على كل الأصول والقواعد  
الإسلامية مفرقة بوضوح بين ما هو حرام ... وما هو حلال  
متمسكة بدينها بوعى وإصرار وإخلاص ، مؤمنة بصلاحيته الكاملة  
لقيادة السفينة البشرية الموشكة على الغرق ، سواء فى :  
( العقيدة الصحيحة ) أو فى ( الاقتصاد ) ، أو فى ( السياسة )  
أو فى ( الإعلام ) أو فى ( الفن والأدب ) أو فى علوم النفس  
والاجتماع والقريبة ...

وفى كل ذلك بدأت تظهر منهجها الإسلامى ، وتبنى  
المؤسسات ، وتقدم إلى كل ناحية من نواحي المعرفة ،  
فتوصل الاقتصاد - بمئات الدراسات - وفق المنهج الإسلامى ،  
بل وتبنى - والله الحمد - مؤسسات اقتصادية إسلامية  
وتوصل ( الأدب ) ( بالإسلام ) وتقيم مؤتمرات للأدب  
الإسلامى ، وتتبنى أقساماً للإعلام الإسلامى ، وتتحدث  
البدائل الإسلامية فى الفنون المختلفة ، وتفتح باب الاجتهاد  
الذى أغلقتة بعض العقول الجامدة ( وإلا فهو مفتوح ولم يغلَق )

وتتقدم نظريات في التربية ، وتتشىء المدارس ، وتتشىء صحفاً إسلامية راقية عصرية إلى آخره .

ومهما تكن هناك من أخطاء ، فإن مواصلة التطبيق كفيلة بإذن الله بعلاج الأخطاء . . . . فالاختلاف بين الفكر والتطبيق مقبول في حدود معقولة ، ومع المثابرة والإصرار على محاولة الوصول إلى الأهداف الواضحة المحددة .

وفي الصفحات التالية نلقى بعض الضوء على هاتين المرحلتين المثلتين لمرحلة ( الثقة والنضج ) ثم نخلص منهما — بإذن الله — إلى تقديم تصورنا لما نراه كفيلاً بإقامة حضارة إسلامية معاصرة .

### نقد الحضارة الحديثة :

كان لابد من إقامة هذا الجدار الواقى بيننا وبين الجيران . . . فما داموا مصرين على فرض الذوبان والتبعية علينا ، رافضين لكل حق وخير عندنا ، مشوهين لكل أفكارنا وقيمنا ، بين أبنائهم وأبنائنا — مادام الأمر كذلك — ولا سبيل للالتقاء — فلا سبيل إلى ترك الحدود مكشوفة ، ولا إلى التغاضي عن روائعهم الكريمة ، وأطماعهم ، ونزواتهم القاتلة . . . .

لقد حاولنا أن نعرفهم بأنفسنا فرفضونا ، وتقولوا على مقدساتنا الواضحة وافترخوا عليها ، ولم يتركوا وسيلة لإبعادنا عن ديننا وحضارتنا إلا اتبعوها ، وعاملونا بكل عنف وصلف ،

ولم يسمحوا لأنفسهم — حتى وهم يستعمرونا ويتحكمون فينا  
ويعيشون بيننا — بأية موضوعية أو إنسانية ولا يزالون  
— حتى اللحظة — سائرين بإصرار على هذا الطريق •

لقد كانت فرصة احتلالهم لنا في القرنين الأخيرين —  
على الأقل — موجبة لهذا التعرف على حضارتنا على نحو ما  
فعل التتار قبلهم ، فكان الواجب الأخلاقي يملى عليهم  
« أن يقيموا المراكز العلمية والفكرية لدراسة القرآن الكريم  
والسيرة النبوية — على صاحبها الصلاة والسلام — دراسة  
مجردة مخلصه ، وأن يوفرنا وسائل الدراسة العلمية لهما  
بأريحية وسخاء ويشجعوا الدراسة الموضوعية التي تتحرر من  
رواسب الحروب الصليبية المموسة وغير المموسة ، والأهداف  
والمصالح السياسية والادعائية ، وتتحرر من مركب لاستعلاء  
الذي يكون في غالب ( Superiority Complex )  
الأحيان نتيجة السيطرة السياسية والحكومة القومية ، والذي  
يحول بين الدارسين وبين التأمّلات الحياضية والدراسات  
المنصفة لثروة الشعوب وللبلدان المغزوة العلمية ومعتقداتها  
ومسلّماتها والتقدير الصحيح لقيمتها وأهميتها » (١) ••

— لكن الواقع أنه لم يكن في هذه المدة بيننا وبينهم إلا  
اتجاه واحد ( One Way Traffic ) وهو اتجاه  
الإخضاع والغرور والتشويه والرفض الذي تحدّثنا عنه  
سابقاً •

---

(١) العلامة أبو الحسن الندوي : الإسلام والغرب ص ١٨ طبع  
ندوة العلماء لكتو الهند .

ومن هنا قلتم يكن أمامنا من خيار إلا أن نحمل أنفسنا ،  
وأن تتدثر بشخصيتنا وخصارتنا ، وأن تكشف لخصومتنا  
الحضاريتين تواكلى الخلل عندهم ، ليس من أجلهم فقط ، بل  
من أجل أبنائنا المهديين بضغوطهم .

يقول شاعر الإسلام محمد إقبال في قصيدته ( رسالة  
إلى العرب ) : « اعلّموا أيها السادة أن من ثار على شخصيته  
وكرامته وفقد الثقة بنفسه مات ومحي من الوجود ومن فر  
من معسكره وانحاز إلى صفوف الأعداء ، وتطفل على مائدتهم  
عوقب بالهوان والشقاء ، والطرده والجلاء ، إلا إنه لم يجن  
عدو على عدو مثل ما جنيتم أنتم على أنفسكم ولم يسء أحد  
إلى أحد إبياعتكم إلى أميتكم ، إنكم آذيتم روح رسول الله  
صلى الله عليه وسلم بخصيعةكم فهي متألمة متوجعة شاكية  
مستغيثة » .

« الشاعر ( يقصد نفسه ) عارف بمكائد الإفرنج ،  
وما لديهم من سهام مسمومة ، وجبائل منصوية ، والشاعرين  
شديد المعرفة بهم ، قد عاش فيهم ودرسهم وخبرهم ، فهو يتألم  
إذ يرى في الأمة العربية من يخرن الظن بهم ، ويعتمد عليهم  
في بناء صرخ الحياة ، وفض المشكلات ، فيرسل صيخته  
وينذرهم من المصير المظلم المؤلم » .

« مهلا أيها الغافلون !! إياكم والركون إلى الإفرنج  
والاعتماد عليهم ، ادفعوا رؤسكم ، وانظروا إلى الفتن الكامنة في



مطاوى ثيابهم • ألا إنه لا خيلة لكم ولا ملجأ إلا أن تطردوهم  
عن نهلكم ، وتدودوهم عن حوضكم •••

— وفي مكان آخر خلال مقطع من ديوانة العظيم  
( رسالة الخلود ) يخاطب الشاعر إقبال ( الحضارة الأوربية )  
فيكشف سواتها ( وهو الخبير بها ) ويطلع أصحاب البصيرة  
والبصر على حقيقتها ويحذرهم منها ••• يقول : أيتها الختناء  
الماكرة ، أيتها السارقة ( يامن تعرفين القمح ثم تبعينه شعيراً  
يسبك يبيع الشيخ والبرهمنى وطنه ) • ( العقل والدين  
ذليلان من مظاهر كفرك ، والحب الغف دليل من أوجه دعارتك ) ،  
لقد أصبحت العلامتان المميزتان للبشرية وهما العقل والدين  
ذيلتين منكسرتين بفعل أعمالك الشيطانية ، لقد جعلت الإنسان  
بمناى عن انفحات الطاهرة التي تكمن في الحب العفيف « لقد  
اخترت صحبة الماء والطين ، لقد اختطفت العباد من أمام الله »  
الإتدرين أنك جعلت الأنظار تتصرف عن الروح وعن الأخلاق  
السامية وجعلت هدف الحياة اللذة الجسمانية وحدها •••

— وعلى خطى شاعرنا العظيم ( إقبال ) تتتابع كتابات  
المفكرين المسلمين الذين اهتموا بتقويم هذه الحضارة ، ونقيدها  
موضوعياً ، سواء في فكرها وفلسفتها التي قامت عليها أم في  
نتائج أفكارها القاتلة • يقول العلامة أبو الأعلى المودودي  
رحمه الله : ( إن سنة الله تراها تتكرر اليوم أمامنا ، فويل  
الأعمال السيئة الذي ذاقته الأمم السالفة قد أحاق اليوم

بالأمم الغربية ، وذلك أنه قد أنذرت هذه الأمم بكل وجه ممكن للإندثار فآفات الحرب العالمية ومشكلات الاقتصاد وازدياد التعطل وانتشار الأمراض الفتاكة وتبدد النظام العائلي ، كل أولئك آيات بينات ، لو تأملوها لعلموا أن كل ذلك ثمرة ظلمهم وعتوهم واتباعهم للشهوات وإعراضهم عن الحق • ولكنهم لا يجدون في هذه الآيات ما يعتبرون به ، فلا يزالون يميلون عن الحق ، وإذا هم تصدوا لمعالجة ما أصابهم فلا تصل أبصارهم إلى العلة الرئيسية للمرض ، وإنما هم ينظرون إلى ظواهر المرض يستفرغون جهودهم لمعالجتها ، وبهذا الخطأ البين في العلاج لا يزال داؤهم يستفحل كلما عولج ، ومما تدل عليه الأحوال الآن أن مرحلة الإنذار وإتمام الحجة قد كادت تنتهي ، وقد اقتربت ساعة القضاء (١) •

لقد عانى الفكر الإسلامي من ضغط الحضارة الأوربية الكثير ، فهي حضارة مغرورة لا تصفى أذنا لأي حوار ، وهي تتطلق من ثوابت لديها تجاه الحضارة الإسلامية ، ولا تحاول أن تغير من هذه الثوابت ، وهي عامدة إلى تزييف الحقائق الإسلامية ، وإلى الحديث عن المسلمين ماضياً وحاضراً بحقد صليبي موروث ، وهي تقف مع كل ملك الأرض حتى الإلحادية منها ضد المسلمين ....

وكان لابد لكل هذا أن يترك انعكاسه على الفكر الإسلامي

---

(١) نحن والحضارة الغربية لأبي الأعلى المودودي ص ٧٦ ، ٧٧ •

... ومن هنا سنجد سيلا من الكتب الإسلامية يحذو حذو القلة ( الغربية ) العاقلة التي تقوم بنقد الحضارة الأوربية من داخلها وعلى رأسها ( ازوالد شنجلر ) مؤلف ( أفول الغرب ) و ( الكسيس كاريل ) صاحب ( الإنسان ذلك المجهول ) و ( رينيه دوبو ) صاحب ( إنسانية الإنسان ) و ( أريك فروم ) صاحب ( ثورة الأمل ) وغيرهم ... بالإضافة إلى ( القلة النادرة ) من كبار مثقفي الغرب الذين انتصروا على الحضارة الغربية في نفوسهم وعقولهم ، فانسلخوا انسلخا كاملا وأعلنوا إسلامهم من أمثال ( ليوبولد فايس ) الذي أصبح اسمه بعد الإسلام ( محمد أسد ) والذي ألف كتاباً كان من أهم الشارات الوضيئة في هذا الطريق بما حواه من عمق في التعرف على ( روح الغرب ) وهو كتاب ( الإسلام على مفترق الطريق ) ومثل ( المهديّة مريم ) صاحبة كتاب ( الإسلام بن النظرية والتطبيق ) ومثل ( روجيه جارودي ) وغيرهم ... فلهؤلاء وأولئك فضل تعميق هذا المنحى في الفكر الإسلامي ، وظهور مئات الدراسات في هذا الطريق ، معظمها جاد موضوعي ، وبعضها قد تشوبه شائبة العاطفة الجموح .

ولعل من أفضل الدراسات ، في الاتجاه الأول : كتابات المفكرين الإسلاميين الكبار ، وعلى رأسهم العلامة محمد إقبال والشيخ عبد الحميد بن باديس ، والعلامة مالك بن نبي ، والعلامة أبو الأعلى المودودي والعلامة أبو الحسن الندوي والشهيدان حسن البنا وسيد قطب وهؤلاءهم الذين تجاوزوا

مرحلة ( المفاجأة ) التي تلقاها جيل المصلحين الرواد من أمثال جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ومحمد فريد وجدى وغيرهم . . . فإن هذا الجيل الثانى فى الحق أكثر وعياً وقدرة ، وجمع أقطابه فى اتران وشمول . . . بين خير ما عند (جيل المفاجأة) وبين ما استطاعوا بكفائتهم واحتكاكهم بالحضارة الغربية — أن يحصلوه من أعماق منهجية ونظرات ثابتة . . . فنقدوا الحضارة الغربية بمنهجها وكشفوا عورتها وفسادها ، وعمقوا الرؤية الإسلامية الحضارية أيما تعميق .

أما الاتجاه العاطفى فى نقد الحضارة الغربية ، فهو اتجاه أقرب إلى الرفض ، وهو لا يكاد يرى — إلا قليلاً — فى الحضارة الأوربية بعض الإيجابيات ، وعلى كل حال ، على الرغم من مأخذنا هذا ، عليه فهو قد قام بدور فى تعميق هذه المرحلة ، وساعد فى إقامة هذا الجدار القوى الذى كان يجب أن يقوم . . . ولو على الرغم منا — بيننا وبين هذه الحضارة التى تريد أن تجهز علينا وعلى ديننا ، وتقضى على كل خصائصنا ومقوماتنا .

— وحسبنا أن نقتبس هذا النص التالى للدلالة على هذا الاتجاه . . .

— يقول مؤلفو كتاب ( الإسلام وحضارة المستقبل ) (١) :

(١) د. محمد عبد المنعم خفاجى ، السيدة ( أمينة الصاوى ) ، د. عبد العزيز شرف نشر مكتبة مصر ص ٦ .

« حضارة أوروبا نسيخ من القوة والظغيان والأثرة وحب الذات والأنانية ، وقد قامت على أساس فلسفتها الاشتعمارية والتفرقة العنصرية ... إنها حضارة اللذة والمتعة وعبادة المرأة والمال ... وعلمها الذي تسير تحته أن الجنس الأوربي هو سيد العالم ومن عداه عبيد أو كالعبيد . وإذا كانت أوروبا قد حرزت الرقيق كلاهما ، فإنه مازال موجودا فعبيلا . الرقيق موجود في المرأة التي تبيح شعائر أوروبا شراها بالمنال ، وموجود في البلاد المستعمرة التي تعيش في منزلة أحظ من منزلة العبيد في سالف الأزمان وكل خيرات هذه الشعوب هي لأوروبا ، ولشعوب البلاد المستعمرة الفقر والمرض والجوع والقتل والموت البطيء الذي لا يتصور أقسى منه » .

« بـ إن حضارة أوروبا حضارة الربا والقمار والخياطينة الشريرة ، والإباحية والعلمانية والمادية ، واستعباد المرأة باسم تحريرها . حضارة لا مكان لها في قاموس المثل والقيم الشريفة . »

ومع ما بلغت أوروبا من قوة مادية فإنها قد أنهكت روحيا

وخلقيا وإنسانيا إلى الدرك الأسفل ، وحسبت أنها تحرم على الرجل أن يتزوج إلا بواجبة ، ومع ذلك تبيح له أن يعيش مع ألف عشيقة وبائعة لجسدها ، ولا تعد ذلك منكرا دائما ، إنما الإثم في نظرها القاصر هو ما شرعه الإسلام للرجل من حرية الزواج بأربع بشرط أن يعدل بينهن : ( وإن جفتم إلا تعدلوا فواحدة ) .

وأوربا في ظلال حضارتها المأجنة تعيش في انهيار دائم ، ورعب طويل ، وفزع مستمر (١) « ..

وثمة مقالات وكتب كثيرة داخلة في نطاق الفكر الإسلامي نقدت الحضارة الغربية بهذا المنهج ... وهو موقف فكري مهما يمكن أن يؤخذ عليه - قد قام بنصبيه - كما ألمعنا - في درء خطر الذوبان والغرق في بحر الحضارة الغربية المتلاطم الأمواج .

### موقف البناء الذاتي ورفض التلفيق : -

من خلال التجارب الحضارية المتعددة يعلمنا التاريخ أن أخطر ما تواجهه أمة هو أن تتهزم في فكرها ومنهج حياتها أمام خصومها الحضاريين .

وعشرات من الأمم هزمت سياسيا وعسكريا ثم نهضت من جديد ، ولربما أثرت بعضها فكريا وحضارياً في المنتصرين عليها في ميادين السياسة والحرب والاقتصاد ..

فالهزيمة الحققة هي تلك التي يستسلم فيها العقل وينسحق الوجدان ، وتتجه المشاعر - في خضوع ذليل - إلى منهج الأعداء العقدي والفكري والسلوكي .

---

(١) المكان السابق .

والتقليد ... في مجال الصراع الفكري والحضارى  
له حدود لا يجوز أن يتجاوزها ... إنه يشبه جرثومة  
مقاومة الطاعون التى لابد أن تعطى بنسبة مئوية محددة ،  
وبشروط معينة ، وإلا تحول الدواء إلى داء قاتل ...

وفي مرحلة من المراحل — خلال فترتنا المعاصرة من  
القرن الرابع عشر الهجرى — بدأ وكأن ميزان التعامل بين  
الفكر الإسلامى والحضارة الحديثة يميل إلى الاختلال يميناً  
ويساراً ... فكم من المفكرين اختل جهاز القيادة الفكرية في  
أيديهم ..

\* فاتجه بعضهم إلى محاولة تليفيقية يسارية ، ونادوا  
بأهمية أن يكون هناك ( يسار إسلامى ) ، ووضعوا لتيارهم  
هذا خصائص أسقطوها عليه إسقاطاً ... وابتسروها من  
الحقائق الإسلامية المتكاملة .

\* واتجه بعضهم إلى ( الليبرالية ) — متجاوزين عن  
كثير من الفروق بين ( الديمقراطية ) — كفلسفة غربية ذات  
جذور وخصائص مستقلة — وبين ( الشورى ) الإسلامية ،  
فأغفلوا الثانية ، وركزوا على الأولى ، وتحدثوا عنها وكأنها  
الطريق الوحيد أمام المسلمين .

— والحق أن الاتجاه إلى إسقاط فلسفات معاصرة

(مسيطرة) على الفكر الإسلامي ومنهج الإسلام ، سواء كانت يسارية اشتراكية ، أم يمينية ديمقراطية رأسمالية ... هذا الاتجاه كله اتجاه ( تلفيقي ) ومن شأنه بعثرة خطوات المسلمين ، وتمزيق رؤاهم ، وإبعادهم عن منهجهم الحضاري الصحيح .

والجدير بالذكر أننا لن نجد قيمة من القيم الإيجابية في كلا الاتجاهين إلا وهي موجودة ضمن حلقات النظام الإسلامي ... لكن بدرجة محددة وفي سياق معين وضمن منظومة كاملة من التشريعات والأخلاقيات ... فالتكافل الاجتماعي والاقتصادي وإنصاف الكادحين ومؤازرتهم جزء لا يتجزأ من الإسلام ، وتحقيق الحرية الإنسانية والمساواة أمام الشريعة بين كل الناس وهيمنة القوانين على كل الناس ، وتحقيق العدل ... هذه أيضاً قيم إسلامية أساسية في النظام الإسلامي ... فما معنى ( بتر ) بعض القيم و ( التركيز ) عليها على حساب قيم أخرى ؟ وما معنى إبراز هذه القيم ( المنتقاة ) وكأنها قيم غير إسلامية ، أو على الأقل وكأنها قيم لم تتألق إلا عندما خرجت من تحت معطف اليمين أو اليسار !!

— وعلى أية حال ... فإن هذا التيار المائل يميناً أو يساراً لم يستطع أن يصب مد طويلاً أمام التيار المتعامل مع الحضارة الحديثة من منطلق موقف حضاري راسخ التجذور قوى البناء ، قادر على الأخذ بنسب حضارية متوازنة محددة على النحو الذي تعرضه سنن الله الكونية في التفاعل بين الحضارات .



إن التغيّر الذي سيطر - والله الحمد - هو هذا التيار الوثيق الصلة بالتكليف القرآني للحضارة ، وهو تكليف يرفض - ضمنا - الصياغة الحديثة للحضارة ، تلك التي تنتكر الله ولا تؤمن إلا بالمادة والمحسوس .

وعلى الرغم من أنه لا يمكن القفز الأعمى من فوق المنتجات العلمية الحديثة ، فهي وسائل ضرورية لا بد من استيعابها وصولاً إلى حتمية ( التحديث ) فإن هذا التحديث لا علاقة له ( بالتغريب ) . فليس ( التغريب ) هو الطريق الوحيد للتحديث . . . بل التحديث الإسلامي الذاتي المطلوب - في ظل المنهج الفكري الرشيد - هو الذي يأخذ بكل المعطيات الإيجابية في الحضارة الحديثة ، ولا يضحى - في الوقت نفسه - بالمنهج القرآني في صياغة الحضارة ، ذلك المنهج الذي لا يتم إلا إذا تمكن المسلم من أن يقرأ القرآن كأنما أنزل عليه ، وإلا إذا أخضع المسلم نفسه للقرآن ، ولم يسقط على الصياغة القرآنية من واقع المريض أو أفكاره الملققة .

إن هذا المنهج القرآني في التفاعل مع الحضارة الحديثة يدفع ( أولاً ) إلى بعث الرغبة الكامنة ، والكافية لدى المسلمين في السعي إلى استعادة حضارة الإسلام ، ويدفع ( ثانياً ) إلى القضاء على التجزؤ وأسبابه ، ذلك لأن الجهد الحضاري إنما هو جهد جماعي لا يثمر إلا إذا كان كذلك ، ومخالف أن يتحقق العمل الجماعي إلا بعد انصهار الجماعة في وحدة

حقيقية مترابطة ، يقيها من التناقض الذي من شأنه أن يقضى  
على العمل ذاته (١) .

ولئن كانت عوامل التجزؤ عديدة ورهيبة . . . فإن  
هذه العوامل لا تنسل إلى الأمة إلا حيث تعاني من فراغ  
فكري ، وفقر إلى مجموعة المبادئ والقيم التي تغنيها بدراية  
سليمة مطمئنه عن حقيقة كل من الكون والإنسان والحياة .  
إذ أن من شأن أي جماعة تعاني من مثل هذا الفراغ ، أن  
تغدو هدفاً لمطامع أولى الدعوات الهدامة ، التي تصطنع  
المبادئ والقيم ، لبلوغ أمانها وأغراضها .

ولكن إذا أمكن أن يسد هذا الفراغ في حياتها الفكرية ،  
بقاعدة راسخة من المبادئ والمعتقدات التي تشكل قاسماً  
مشتركاً يؤمن به ويخضع له الجميع ، فإن هذه القاعدة تصبح  
في حياتها كالميزان الذي يحتكم إليه الطرفان ، كلما اختلفا  
على أمر ، فلا تدع شيئاً من الخلافات وأسبابها تصدع بنيان  
الأمة أو ترهق وحدتها (٢) .

والعطاء ( الثالث ) في مجال التعامل مع الحضارة الحديثة  
الذي يحققه المنهج القرآني هو « تحقيق الاستقرار النفسي

---

(١) انظر بتصرف د. محمد سعيد رمضان البوطي : منهج الحضارة  
الإنسانية في القرآن ١٨٤ دار الفكر .  
(٢) المرجع السابق نفسه ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

والفكرى. » ويتحقق قسب كبير من هذا الاستتقار عن طريق ترسيخ المسلمات القرآنية الأساسية ، كما يتحقق قسب كبير منه ، في ظل الوحدة التي من شأنها أن تأتي ثمرة لرسوخ تلك المسلمات — من ( جانب ثانٍ ) •• كما أن رسوخ المسلمات يحول دون الوقوع في عمى الانبهار الحضارى القاتل ••

— « لقد نهضت الدول الأوروبية تهضمتها ، ودخلت عصر « البخار » الذى يشبه في يومنا هذا عصر « القطن » وركبت من حياتها متن الدراية والصناعة ولكننا بدل الأخذ بأسباب النهوض الحقيقى انبهرت أبصارنا وعشيت لبرأى هذه النهضة ، وكان من أهم أسباب ذلك الانبهار ، انحسار أسباب القوة عن حياتنا ، وامسغلتنا بحال ( الرجل المريض ) دفاعاً عنه أو تعجلاً به ••• ثم انتشر عقد وخذتنا بين أيدي المقتسمين والناهبين •

وكان من آثار هذا الانبهار ، ذلك السعى التقليدى الأعمى وراء أوروبا أملاً في بلوغ نهضة كهضمتها ، وتلمس الإصلاح في السبل ذاتها التي تلميته منها أوروبا ••• وأخذنا نضع الإسلام في الميزان ذاته الذى وضعت فيه أوروبا دينها ••• كل ذلك بدافع من مركب النقض الذى حاق بنا ، والانبهار الذى عشيت له أبصارنا (١) •

(١) المرجع السابق ص ١٨٨ ، ١٨٩ •

— وفي اتزان فكري واع يواجه المصلح العلامة ( محمد  
البيشير الإبراهيمي ) — الرجل الثاني في جمعية العلماء  
المسلمين الجزائرية — الحضارة المعاصرة ، فيعلى من شأن  
الحضارة الإسلامية عليها ديناً ولفة وشريعة ، ويدعو إلى  
الحضارة الشرقية التي يسميها « بداوة » ( — دون موارد  
لفظية — ) . . . يقول المجاهد الجزائري الكبير : « لقد جاء  
الإسلام بالحضارة التي لا تبيد ، والمدنية المبنية على حكم  
الله وآداب النبوة ، فكان التوحيد أساسها ، والفضائل أركانها  
والتشريع الإلهي العادل سياجها ، واللغة العربية الناصنة  
البيان الواسعة الأفق لسانها . وبذلك كله أصبحت مهيمنة  
على المدنيات كلها ، ووضع الإسلام هذه الحضارة الخالدة  
على القواعد الثابتة مما ذكرناه ( ١ ) » .

« ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت  
في تكوينها وفي تلويينها عدة لغات مختلفة الأصول ، ولم تستطع  
أن تقوم بها لغة واحدة على حين أن العربية قامت وحدها  
ببناء حضارة شامخة البنيان ولم تستعرض اللغات الأخرى  
إلا قليلا من المفردات » ( ٢ ) .

**وأخيرا . . . يقول الشيخ الإبراهيمي :**

إني لأتمثل شبابنا بارأ . ( بالبداوة ) التي أخرجت من  
أجداده أبطالا ، مزورا عن الحضارة التي رمته بقشورها

---

( ١ ) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ج ١ ، ص ٢٥٩ . طبع  
الجزائر .

( ٢ ) المكان السابق .

فأرخت أعضائه وأنثت شمائله ، وخنثت طباعه ، وقيدته  
بخيوط الوهيم ، ومجبت في نبتعه الطاهر السُموم ، وأذهبت منه  
ما يذهب الققص من الأسد من بأس وصوله (١) !!

إن وصول الفكر الإسلامي إلى محطات الثقة الذاتية كان  
ضرورة حتمية ، بالنسبة لأشواط الصراع الحضاري التي  
قطعها في رحلته مع الحضارة المعاصرة . . .

إن هذه الحضارة لم تقدم لعالم الإسلام ولا للبشرية  
إلا السُموم الأخلاقية التي ينكرها دينه القويم .  
— ومع كل تقدم تكنولوجي ، فقد سخرت هذه الحضارة  
صنوف تقدمها في خدمة الغرائز الدنياه والأهواء الجامحة . .

— وعندما يفكر العقل المسلم في الصياغة الأخلاقية  
للحضارة الحديثة يجدها صياغة لا مكان للأخلاق في نظرتها ،  
ولا مكان للعفة والشرف والوفاء والالتزام الأدبي نحو  
الإنسانية في برامجها .

إن « إعلامها » و« وسائلها » (التربوية) ( وكتبتها )  
( هيكلها الاقتصادي ) ، وأساليبها ( السياسية ) ، وبرامج  
« سياقتها التسليحية » . . . كل هذه المجالات وغيرها مقطوعة  
الوشائج بالقيم العليا ، لا مكان فيها لما وراء الدنيا ، ولا  
تكتنفها الرؤى الإنسانية والأخلاقية العامة .

— إن « الصدق » الذي هو أساس الأخلاق الإسلامية

(١) - عيون البصائر: ٢/ ٥٨٦ . . .

والذى يعتبر تجاوزه كبيرة من الكبائر إنما ينظر إليه على أنه  
(مذاجة) في المجالات السياسية ، إذ « الميكافيلية » هي  
الدين السياسى المتبع في أروقة السياسة الدولية .

— وإن « الرحمة » لا تعدو أن تكون (ضعفاً) في عرف  
هذا الحضارة .

— وكل شيء مباح إذا ما قامت الحرب . . . فلا مكان  
أمام التسليح الحديث لرحمة شيخ أو طفل أو امرأة . . . بل  
الأسلحة ( الذرية ) و ( النووية ) قد صممت لتؤدي وظيفتها  
بطريقة شمولية !!

وبإيجاز ، وبعيدا عن الاستطراد ، فإن المسلم يجد  
مبادئ قرآنه وسلوك نبيه عليه الصلاة والسلام اللذين  
يشكلان نبراس حضارته ومقياسها يرفضان الفلسفة الأخلاقية  
لهذه الحضارة .

وإن أخلاقه السياسية والحربية والحضارية التي تحفظها  
ذاكرته التاريخية لتقدم له نماذج أرفع بكثير مما قدمته هذه  
الحضارة المعاصرة . . . وبالتالي فلا معنى لأن يترك الأعلى  
ويهبط إلى الأدنى .

على أن الجوانب التكنولوجية التي ترهبو بها هذه  
الحضارة — وهو زهو في موضعه لو أمكن لها تسخير  
التكنولوجيات لخدمة التطور الروحي للإنسان . . . هذه  
الجوانب لا تتعارض — أبداً — مع الفكر الإسلامى ، بل هي  
مما يجيده الإسلام باعتباره الدين الذى يحث على العلم

ويعتبره عبادة ، ويسبق قرآنه نحو سبعمائة آية تدور حول العلم والفكر واللب والعقل .

وفي حكم الشريعة الإسلامية - كما يدرك المفكر المسلم - أن تخلف المسلمين في علوم الآفاق والطبيعة والرياضيات البحتة والتطبيقية والكيمياء والطب والقضاء ... إنما هو إثم يقع على مجموع الأمة باعتبار التقدم في هذه العلوم ( فرض كفاية ) يقع وأجبه على جميع المسلمين إذا فعله بعضهم سقط عن الباقيين ، وإذا لم يفعله بعضهم يَأثم الجميع ، والقيام به يصبح ( فرض عين ) على من يمكنهم القيام بأجبه .

وفي ضوء هذا فلا انشقاقية في فكر المسلمين بين علوم الروح وعلوم المادة .. بل هما معاً ضرورتان للحياة ممتزجتان امتزاجاً كاملاً ، بل يخدم كل منهما الآخر ، ويحمي - على درب الحضارة - خطاه .

### الطريق لإقامة حضارة إسلامية معاصرة :

إن الفكر الإسلامي - في هذه المرحلة المتناضجة فمنين وعيه - قد وصل إلى منعطف خطير في تقاعله - أو صراعه - مع الحضارة المعاصرة ... ولقد أصبح ( واجباً ) عليه أن يطرح البديل لسكونه الحضاري في قرون التوقف - من جانب - والبديل لحضارة الحركة المجنونة التي تكاد تفقد معظم الضوابط والمعايير - من جانب آخر .

وطريق الفكر الإسلامي - عند هذا المنعطف - ليس

طريقاً سهلاً ، كما أن ما قطعه من أشواط — خلال صراعه الطويل مع الحضارة الأوربية — لم يكن سهلاً كذلك .  
فالصراع — برمته — قضية وجود .

**ولابد لعبور هذا المنعطف الجديد من ترسم المعالم التالية :**

أولاً : الثقة المطلقة فيما قدمه القرآن من ضياغة للحياة ، وفيما قدمته حياة الرسول عليه الصلاة والسلام لنا من نموذج قرآني مثالي . . . ولئن كان غيرنا — بالعقل المحض — مثل ( ما يكل هارت ) قد جعل محمداً ( العظيم الأول ) في التاريخ فإننا — بالعقل والإيمان — يجب علينا — إذا أردنا إنقاذ أنفسنا من وطأة النموذج الغربي للحياة وإنقاذ البشرية كلها — من العودة بثقة كاملة إلى القرآن نتلوه كأنما أنزل علينا ونتمثل سلوك نبينا باعتباره المثل الأعلى لنا .

ثانياً : إن الفكر الإسلامي في مواجهته للحضارة المعاصرة لم يتخلف في المجال التكنولوجي أو المادي فقط ، بل إنه تخلف فيما هو أخطر ، فقد ترك العلوم الإنسانية من تربية واجتماع واقتصاد وعلم نفس وإعلام ومناهج بحث تاريخي وفلسفي وجغرافي للحضارة المعاصرة ، وعاش هو يجتر ما ضنيه دون هواكبة للوسائل الحديثة المتطورة ، ولا أمل في مواجهة الحضارة المعاصرة مع الخسوع لنظرياتها وفلسفاتها في هذه العلوم الإنسانية المتصلة أوثق الاتصال بصياغة الحياة وفلسفتها .



وعلى الفكر الإسلامى أن يقتحم - بالضرورة - هذه العقبة ، وأن يبنى المؤسسات الإسلامية الأصيلة . . . . جوهراً - والمتطورة وسائل وطرائق بحث فى المجالات التربوية . . . والاقتصادية ( وقد قطع الفكر الإسلامى شوطاً طيباً نظرياً وعلمياً فى هذا المجال ) والاجتماعية والإعلامية (والسيكولوجية) وغيرها . . .

ثالثاً : وفى ظل المعلمين السابقين : ( الثقة فى القرآن والرسول ) و ( إقامة صرح التصور الإسلامى للعلوم الإنسانية ) على المسلمين أن يدخلوا معترك السباق التكنولوجى والمادى ، ونقطة البداية فى هذا الموضوع هو النقل من ( الاستيراد ) إلى أقصى حد ممكن ، وتشجيع الاختراع والصناعة الإسلامية مهما كانت بدائيتها ، وإذا كانت الهند - كلها تقريباً - تتركب سيارة (امبسادور) الهندية بدءاً من رئيس الجمهورية والوزراء وحتى المواطن العادى ، مع أنها سيارة بدائية جداً بالنسبة للسيارات الأمريكية وحتى اليابانية . . . فأحرى بنا نحن المسلمين - بل إنه لواجب شرعى - هجر هذه السيارات المستوردة القارحة والإصرار على أن تكون لنا سيارة إسلامية . . . ثم طائرة إسلامية . . . ثم أسلحة . . . وهكذا . . . مهما كانت بدائيتها . . . ولا طريق للتطور الحق إلا عن هذا الطريق . . . أما طريق الاستيراد ، فهو طريق الموت البطيء . . . والتبعية الذليلة ، وهو ليس طريق البناء الحضارى على أئنة حال .

رابعاً : وبما أن الرفض وحده ليس كافياً في علاج أية أزمة حضارية فلا بد من اعتماد سياسة البدائل ، فمع رفضنا لكل التصورات غير الإسلامية علينا أن نخضع مكانه البديل الإسلامي « الميرمج » المخطط له الذي يشبع سائر الطاقات ويملك للوسائل الفنية المعاصرة ، ويحتفظ بمقومات التصور الإسلامي السليم .

وهذا الأمر يجب أن نطبقه في ( الفن ) رواية ، ومسرحية ، وفيلم ، وتمثيلية ، وأن نطبقه في النظريات الإعلامية والتربوية والاجتماعية ووسائل الترويح والثقيف المختلفة ، وفي المجالات الاقتصادية أيضاً .

( فالبديل ) هو ( الحل الحضاري ) الصعب والضروري ، وأما مجرد ( الرفض ) فهو أمر سهل يستطيعه كل عنابر وضعيف .

خامساً : وتجنباً للعثرات الطريق الذي انحدرت إليه أوروبا كرد فعل لما أرادت الكنيسة فرضه على الحياة من زهد وكبت وإرهاب ، فإتينا يجب أن نلتزم بمنهج الإسلام في احترام الفطرة الإنسانية وتيسير كل السبل لتصرف الطاقات الإنسانية في المصارف الحلال وبالتالي فيجب فتح نوافذ الحلال على مصراعها - في الإطار الإسلامي المتوازن - حتى تغلق أبواب الحرام التي فتحت على التجربة الأوربية بتأثير المنهج الكنسي العقيم . . . . . فعلينا تيسير عمليات الزواج

وجعلها حقاً للفرد على المجتمع . . . . . وتيسير « للترويج »  
الحلال ، والعمل الحلال ، وإنهاء عصور القهر السياسي ،  
وإذلال الشعوب باللقمة والسكن ، وتبديد طاقاتها في مشكلات  
الحياة اليومية ، بينما يخطط غيرها لما بعد القرن العشرين ،  
ولما بعد المراكب الفضائية ، وحرب النجوم . . . . . بيتما يتكفى  
المسلم على نفسه محاصراً بهذه (المقاتل) المعاشية والسياسية  
والاجتماعية التي تخنق فيه طاقات الإبداع وتشل طموحاته  
العظيمة .

سادساً : إن أية تنمية أو عملية تحضير بدون ( إنسان  
مؤهل قادر ) هي عملية خسارة ، ولن تغني المباني العملاقة  
المجهزة بأحدث الوسائل العصرية عن ( بناء الإنسان ) نفسه ،  
ولا بناء للإنسان إلا إذا كونه تكويناً عقدياً سليماً ، وزرعنا  
فيه الانتماء لدينه ولأمته ، واحترامنا ( عمره ) الذي هو (وقته)  
فاختصرنا له الإجراءات الروتينية المدمرة ، وقمنا بثورة (إدارية)  
في شتى المرافق بحيث تختصر ( الإجراءات ) بنسبة لا تقل  
عن ( ٩٥ ٪ ) من الأساليب المطبقة حالياً . . . !!

سابعاً : ومع إيماننا الكامل بأن الأسباب الداخلية هي  
أهم الأسباب في عملية التخضير ( إن الله لا يغير ما بقول حتى  
يغيروا ما بأنفسهم ) فإننا نرى أنه من العثم على الفكر  
الإسلامي أن يقوم بتحرير الأمة المسلمة من قيود الجمود  
والجزئية والعقم وضيق الأفق التي ورثتها الأمة من بعض  
عصور الانحطاط والتي ضربنا لها مثلاً بالذين رفقصونا تسليح

تركيا بالسلاح الحديث ، وهو مجرد مثال يوجد له نظائر  
بالمئات ... بحيث أن الفهم ( الهرمي ) لحقائق الإسلام  
أصبح مقلوباً ، فوضعت الفروع مكان الأصول في بعض  
الأحيان ، وأغفل التركيز على أساسيات الحياة الإسلامية  
كالعدل والشورى وحماية حقوق الإنسان المسلم وعمليات  
إيادة الشعوب الإسلامية وبيع حقوقها وكرامتها الأعدائها ...  
بينما يتركز اهتمام بعضهم على بعض السنن والنوافل وهيئات  
الصلاة ... وحرمان المرأة من المسجد !!

— وفي المقابل — وبالقدر نفسه — يجب حماية الأمة  
المسلمة من القيم الاغلاية الوافدة من المستعربين الذين سقطوا  
تحت تأثير الإشعاعات الأوربية وانبهروا بها .

فالمنهجية النقدية الواثقة يجب أن تكون ( المبضع ) الذي  
نتسلح به في وجه القيم الضيقة ، والقيم المتفسخة ..

وأمامنا — بعد كل ذلك — الميزان الذي نتمسك به ..  
ولن نضل — بإذن الله أبداً — مهما طالت غربلتنا للماضي ،  
ومهما تعددت مجالات صراعنا وحوارنا الفكري مع  
الحضارة الحديثة ...

ذلك لأننا لا نضارع هذه الحضارة — ولا نحاورها —

بفكر مجرد لا قواعد له – وإنما نتعامل معها بفكر الإسلام  
ذى القواعد الثابتة والحوار المنطلق الرحب الذي لا يرفض  
الإفادة من شتى التجارب الحضارية التي تريد – بحق – أن  
تخدم قضية الإنسان على هذه الأرض !!



## **الفصل الثالث**

### **الأزمة الحضارية المعاصرة للمسلمين**

#### **وقفه التاريخ**





## مناهج ردود الأفعال : —

ليس شباب الأمة — أية أمة — عضواً مقطوعاً عن سائر الأعضاء إنه مرحلة من المراحل التي يمر بها كل المجتمع ، وهو — حين يمر بهذه المرحلة — لا يعدو أن يكون عضواً — وإن كان العضو القوي — في جسد الأمة • وعندما نجاول: رصده عضو من أعضاء المجتمع ، أو مرحلة من مراحلها — سواء كنا بصدد قضية كالطفولة أو الشباب أو المرأة — مثلاً — فإننا يجب أن نكون واعين بالأبعاد الاجتماعية والإنسانية كلها ، إذ ليس هؤلاء جميعاً إلا أجزاء يتبادلون نوعاً من التفاعل الذي يربط الأفراد بالجماعة ••

والمنظور الصحيح يقتضى •• ونحن نعالج قضية ما — أن نعطي لمجموع العوامل والقوى الفاعلة نصيبها ، وأن يكون تحليلنا قائماً على أساس ( البقاء الكلى ) الذي أفرز لنا وضعاً خاصاً تنقسم به كل شريحة من شرائح الأمة ••

ولقد بقيت كثير من المناهج تنظر إلى بعض الأوضاع نظرة جزئية محدودة ، وتصف لها علاجاً منسجماً مع نظرتها •• فهي تحاول — في مواجهة ما تراه مثلاً — من تخلف علمي — أن توصي ( بالتربية العقلية ) ••• وفي مواجهة ما تراه من أنانية فردية — توصي بالعمل على إيجاد ( الروح الاجتماعية ) ••• وفي مواجهة الفراغ وما يتبعه من سلوكيات سلبية توصي

( بملء الفراغ ) ببرامج ترويجية وتثقيفية ورياضية — وهكذا  
يمتد العلاج متتبعا كل حالة ( مرض ) أو ( سلبية ) •• دون  
أن يكون لهذا الدور والتسلسل ، والدور والتسلسل المضاد ،  
أية نتائج إيجابية تسمح بمرود حضارى ملموس •

إن مثل هذه النتائج العاجزة ، والتي تحاول معالجة  
أوضاع الأمة الإسلامية الاقتصادية والثقافية والنفسية  
والاجتماعية بهذه الأساليب •• لم تصل — كما أنها لن تصل  
— بالأمة إلى انبعاث حقيقى ••

— لقد حاولنا علاج تبعيتنا السياسية للشرق والغرب  
منطلقين من هذا المنظر •

— ولقد بذلنا الكثير — ولا سيما الشباب — حتى وصلنا  
إلى ما يطلق عليه بعضهم « الاستقلال » السياسى ، الذى  
انتقل من كونه ( ظاهرة صفة ) إلى كونه ( مرضاً ) ظواهره  
التجزئة والحدود المرسومة والإقليمية الجغرافية الانفصالية ••

— ولقد حاولنا علاج تخلفنا الاقتصادى بالمنظور نفسه  
•• فكان أن تورطنا فى نظريات لا صلة لها بنا ولا بأمراضنا  
الحضارية •• ولقد استوردنا بهذه النظريات دواء لا علاقة  
له بأمراضنا •• مجرد أن مرضى آخرين استعملوه ، حتى إتقا  
لم نفكر فيما إذا كان هذا الدواء الاشتراكى أو الرأسمالى قد  
ينفع أصحابه الأصليين أم لم ينفعهم ••!!

وفي المشكلات الثقافية والفنية والجمالية والنفسية  
وقعنا في الخطأ نفسه ، وتجاوزنا عن إدراكنا الشامل لحقيقتنا،  
ولظروفنا الحضارية الموصولة بتكويننا التاريخي ... ورحنا  
نعالج الأمور بمذهب فني نستورده من هنا أو ( رؤية جمالية )  
نستوردها من هناك .. أو بعض مصطلحات غائبة لا مضمون  
حقيقي لها في كياننا ووجداننا الشعوري نبتسرها ابتساراً  
من الحديقة التي أنجبنا .. واختلطت في أيدينا أنواع  
الأدوية حتى أصبحت مزيجاً لا يصلح لشيء .. بل أصبحت  
هذه الأدوية داء جديداً يفسد مرحلة الخروج من الاستعمار  
السياسي ، ويجعل أعضاء الجسد الإسلامي يهدم بعضها  
بعضاً .. فالقلب يختلف مع العقل .. والروح تتفصل عن  
الكيان ، والكيان الواحد صار عدداً من الكيانات المتناقضة ،  
حتى وإن بدا في الظاهر كياناً واحداً .

### القضية الأساسية : معرفة البداية :

خلال القرنين المنصرمين الثالث عشر والرابع عشر للهجرة  
كانت الأجيال المسلمة تعيش عصراً من أشد عصورها قسوة  
ووطأة .. وكانت مفردات الامتحان صعبة للغاية ، ولعلها  
كانت أكبر من المستوى الحضاري الذي يعيشه عقل الإنسان  
المسلم .. والغريب في هذين القرنين أن عوامل الانهيار كانت  
تلتحم التحاماً كبيراً بعوامل النهوض .. فبينما كان الاستعمار  
السياسي والعسكري ، وما يتبعه من غزو تغريبي يجتاح العالم

العالم الإسلامي ويعرض حلولا تغريبية وعلمانية ومادية وانفصالية عن الحضارة الإسلامية ، كانت خمائر النهضة الحقيقية تبرز متألفة في عدد من المبادئ والشخصيات في الوقت نفسه . . كما استطاع الإسلام أن يجهض الانتصار التقري العسكري والسياسي ، ويحول التتار إلى جنود للإسلام ، فكذلك نجح الإسلام في أن يجهض الانتصار السياسي الأوربي ، وظهرت على امتداد العالم الإسلامي حركات واثقة تفصل فصلا كاملا بين الانتصار الساسي ، وبين الانتصار الحضاري . وتقدم تصورا ( بديلا ) نابعا من التجربة الحضارية الإسلامية لكل ما يطرحه الغرب من مقولات ونظريات . . بل وتري في التقدم الغربي العلمي و ( التكنولوجيا ) ( سيف جالوت ) الذي سرقه ( الغرب ) من المسلمين ، حين جلس تحت أقدامهم يتلمذ على علمائهم في قرطبة وإشبيلية وطليلة وغرناطة وصقيلة ، وبجاية والقيروان والقاهرة ، وفي الحروب الصليبية التي استمرت مدة قرنين ثم جاء ( الغرب ) يقتل المسلمين بهذا السيف الذي سرقه في غفلة من أصحابه الذين كانوا يمرون بمرحلة غرور تخديري حضاري ، في نفس قرون تفاعل الغرب مع القيم الإسلامية التي نقلها خلال احتكاكه بنا . !!

وبينها كانت فرنسا تجتفل بمزور مائة عام على احتلالها للجزائر ، وكان مندوبها السامي يعلن في الاختفالات نعي الجزائر المسلمة العربية إلى الأبد ، فوجيء العالم برجل يلبس العمامة والبرنسب المغربيين يتحدى . . ومن ورائه جمعية العلماء

المسلمين الجزائرية ببركل عمليات الإبادة الحضارية ، ويعلم من خلال دروس القيسر أن في قسنطينة بالشرق الجزائري أن ( الهوية ) الجزائرية الإسلامية مازالت تتحدى ، وأن « شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينسب » . ولا تهر بضع عشرات من السفين من الجهاد الفكري والدموي حتى تتحول آلاف الكنائس التي لم يتبناها ولا جزائري واحد - إلى مساجد ، وتعود اللغة العربية اللغة الرسمية ولغة الحياة . وتعود الجزائر بفضل حركة الثقة في الذات الإسلامية إلى الحضارة الإسلامية .

ولئن كانت الجزائر مثلاً اخترناه لبروزه ، فالحقيقة أن الوعي بحقيقة الذات المسلمة كان وراء كل حركات التحرر ، حتى وإن سرق الثمار بعض المعادين للإسلام الذين زرعهم الاستعمار بعد أن أحس بحتمية خروجه ، وبعد أن امتلاً حقداً على الإسلام الذي قاد حركة التحرر . فأراد أن يحول دون أن يجني الإسلام الثمرة التي غرسها .

ومع ذلك ، فإن الأمر كل - كما ذكرنا - يقوم على اشتباك غوامق الشقوق بعوامل النهوض ولئن كان المتكروناً للإسلام وحضارته قد سقطوا في المعادلة الحضارية السليمة للتقدم ، فإن بعض أنصار الحضارة الإسلامية قد سقطوا أيضاً ، حين راحت جماعات منهم تحاول رفض الحياة في الحاضر والمستقبل بالجملة ، وتتعامى عن التحديات الجديدة .

وأصبح الماضي — بدل أن يكون الطريق المضمون للمستقبل —  
يطرح — فكراً وتطبيقاً أحياناً — وكأنه البديل للمستقبل •

وعادت إلى الفكر والواقع كل أمراض الماضي تطرح  
نفسها — مع ثبوت فشلها — باعتبارها حلولاً للمستقبل ••  
فعادت القومية ، وعاد الجمود العقلي ، وعادت المعارك الفكرية  
الوهمية في القضايا الكلامية واللفظية ••

وهكذا — إما لبواعث التخدير الطارئة بعد الحروب  
الصليبية — أو لعوامل التخدير الذي سببته بعض العلوم  
المحسوبة على الإسلام — راحت جماعة من المسلمين تولى  
وجهها شطر الماضي بنظرة تكرارية ، وكأنها تريد إعادة الدورة  
الحضارية الماضية بكل عناصرها وتحدياتها وأبطالها وحبكتها  
ومقدماتها ونهايتها ، ولهذا فهي لا تريد أن تقف من هذا الماضي  
العظيم ( النموذجي ) — كما ينبغي — موقف الاحتذاء والتأسي  
والإضافة إليه ، والانطلاق منه نحو المستقبل •• كلا •• بل  
راحت تلغى ( الحاضر ) وتستكف رصد ( المستقبل ) و لا تلتفت  
حولها إلى ما يدور على الشاطئ الآخر في غرب الدنيا من  
عالم جديد يطرح نمطاً جديداً للحياة وتحديات فكرية ومعاشية  
جديدة ••• بل على العكس •• وجدنا بعض الأبطال الذين  
اندثروا وفقدوا وجودهم ، وانتهت ( المشكلات ) التي ( أحدثوها )  
والمشكلات الأخرى التي ( واجهوها ) ، وبليت « الأسلحة »  
التي حاربوا — أو حاربوا — بها •• لقد وجدنا هؤلاء

( الأبطال ) يعودون — مرة أخرى — وكأن الزمان مازال  
زمانهم ، وكأن الحياة قد جمدت عند أعتابهم .. مع أن نهر  
الحياة دافق بالحركة لا يتوقف عند أعتاب أحد .

— لقد عاد المنطق اليوناني القديم .

— ولقد عاد الماتريديّة من جديد ..

— وعاد الأشاعرة .

— وعاد المعتزلة .

— وعاد المرجئة .. وبيجاز عاد ( علم الكلام ) كما  
كان يفرض طلبه ( الكلامي الجدلي ) على واقع لا يتحمّله ..

— وعادت قوافل الصوفية التي خدرت العالم الإسلامي  
ردجاً من الزمان ..

— وعاد الفقهاء يحملون معهم — إلى جانب التعصب —  
تلك العوامل التي أدت إلى إهمال طريق ( السنة الشريفة )  
الذي هو السبيل الوحيد لإدراك حقيقة الإسلام ..

وليس ( المنطق اليوناني ) — في الحقيقة — ولا علم  
( الكلام الجدلي ) ولا ( الفقه التعصبي ) ولا ( التصوف ) إلا  
ضوارف عن هذا الطريق ، وتمزيقاً للرؤية ، وعودة — غير  
حميدة — لعصور سيطرت فيها عوامل التخلف على الحقيقة  
الإسلامية .

## السنة والنموذج القدوة :-

إن صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام لم يفهموا القرآن الكريم ولا سنة النبي على أساس هذا ( المنطق الصورى ) ولا ( علم الكلام ) !!

ولم يكونوا بحاجة إلى ( تصوف ) يعلمهم كيف يتفاعلون مع كتاب الله أو كيف يقومون الليل ... كما أن التفريعات الفقهية المصحوبة بتعصب لم تكن من أركان منهجهم ولا من منهج قادة المذاهب الفقهية أنفسهم ( رضى الله عنهم ) .. بل إن أكبر خسارة لحقت بنا هي ربط فهم الإسلام بهذه المعتقدات اليونانية أو بالأصول الكلامية الجدلية المتواضع عليها عند أصحابها ...

إن هذا قد أدى إلى ظهور منهج ( فنى ) جديد لتدبر الإسلام وفهمه وبيان مسأله - مغاير تماماً لمنهج الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام - (١) وهكذا .. تمحصر القرنان المنصرمان عن استقلال سياسى ( ناقص ) يكاد يفقد جدواه ... إذ أنه - ولا سيما بعد بداية عصر الاستقلال وهدوء حدة العداء للغرب الاستعمارى - بدأت أفكار مفسدة تطرح بقوة .. ويبدأ ميزان الحقائق يختل في عقول الأجيال المسلمة .. وضاعت معالم الحق ، ووجد متعلمو الشباب

---

(١) انظر وخيد الدين خان ، تجديد علوم الدين ( تحت الطبع دار الصحوة بالقاهرة ) .



أنفسهم وينط طرق كثيرة متناقضة ، كل طريق له رجاله ودعائه  
ونماذجه القيادية التي يطرحها ، وحتى نموذج الرسول ( الذي  
هو نموذج السنة - أي طريق الرسول ) كدرت منابع التلقى  
عنه تلك الطرق التي تحدثنا عنها فابتعد العقل المسلم عن  
منطقة الجاذبية النبوية ، واستقطبتهم إليها ( في رحلة تية )  
نماذج أخرى •



إن الشباب ليخس خلال التناقض الذي يعيشه في عصرنا  
أنه يفتقد القدوة الصالحة في القيادات المتعددة ، وتأثير القدوة  
في النفوس أقوى من تأثير الأقلام والخطب ، وتاريخ المسلمين  
ملئ بنماذج من الرجال الأكفاء الذين كانوا منارات هدى  
وسبل نجاح للأمة ، وعلى رأسهم الرسول القائد صلى الله  
عليه وسلم الذي خرج جيلا من القادة ما جاد الزمان بمثلهم ،  
ثم كان في تاريخ الإسلام رجال غيروا وجه الحياة وعكسوا  
مجرى التاريخ للأحسن ، وكانت القدوة موجودة في كل مكان!  
في السياسة والعلم ، في الحزب والدولة ، في الدعوة والجهاد  
... وقد دفع هذا النقص الشباب إلى أن يدرس حياة شخصيات  
زينها الباطل ، وأوجدتها الدعائية ، من علماء وسياسيين  
ومفكرين ، كفرة ومسلمين ، ولم تكن شخصية من هذه الرموز  
إلا ولها عداة للإسلام وحرب عليه ، ولذلك يفتقد العالم  
الإسلامي مثل القدوة التي غيرت وجه التاريخ وحققت

الانتصارات الحربية والعلمية والأدبية ، وتقلب المجتمع إلى مصاف المجتمعات التي تنتج وتبتكر ، وتكتشف ، وتضيف إلى التمدن والحضارة مثل ما أضاف جيل الحضارة الإسلامية الزاهر (١) .

والشباب يعلم أن الزيف استشرى في أوجه الحياة ، وأن اليأس من التغيير يكاد يجمد النفوس الضعيفة ، ومناهج الدراسة لاتجد في حياة المعاصرين من يمثل تلك القوة فتجأ إلى قادة المسلمين السابقين ، وربما كانت السلسلة لا تتعدى عهد صلاح الدين الأيوبي وإلا قليلا ، مع تعمد إهمال بعض الرموز التي غيرت من فكر الشباب واعتزازه بدنيية وتاريخه وأمته وفكره ، بل بتشويه الصورة الطيبة التي قدموها أنموذجا للأجيال ، ثم إبراز شخصيات كانت سببا في تعاسة الشعوب وتخلفها وهزائمها ، الأمر الذي يقابله الشباب بالسلبية والتعجب ، حيث انقلبت الموازين وأصبح الزيف حقيقة والباطل حقاً والجبان بطلا والخائن أميناً ، والبخيل كريماً (٢) .

\* \* \*

إن ( السنة ) التي ندعو إليها — أي العودة إلى طريق الرسول ) لا تعنى الالتزام ببعض الجزئيات والنضال دونها

- 
- (١) د. عباس محجوب : مشكلات الشباب — قطر — ص ٦٦ .  
(٢) د. عباس محجوب : مشكلات الشباب ، الحطول المطروحة والحل الإسلامى ص ٦٧ .

بل تعنى التفاعل الكامل مع نسق الحياة التي قدمها — بأقواله وأفعاله وتقريراته — إمام حضارتنا محمد بن عبد الله (عليه الصلاة والسلام) عبر (دورة) حضارية متكاملة تنتظم سائر الحالات الإنسانية... إنها تعنى الانغماس في صناعة التقدم الإنساني وفق الصياغة المتوازنة والإيجابية التي قدمها الرسول وصحابته، بحيث نجح هذا الجيل أن يستجيب الاستجابة المثلى للتحديات التي واجهته عندما فتح الله له فارس والروم...

والسنة — أيضاً — تعنى وجود خريطة واضحة للحياة الإنسانية التي يريد الإسلام ووجود أهداف شاملة محددة لهذه الحياة... وذلك على العكس من الطرق الصارفة عن السنة تلك التي تنتهي إلى حصر حياة المسلم في نطاقها، (صوفياً) كان أو (فقهياً) أو (كلامياً) بل والزود عن هذا (النطاق) وكأنه كل القضية... والإذابة — بالتالي — لعالم الخريطة الشاملة والمنهج الواضح والأهداف المحددة للمسلم في هذه الحياة التي استخلف فيها، ووكّل إليه أمر عمارتها — بعون الله... بل إن (الصوفية) — مثلاً — تجعل الحياة لأمعنى لها... وتدعو إلى (غيوبة) اجتماعية، وتعطى قيمة (العمل) و (التغيير) و (الإبداع) في الحياة دوراً ثانوياً لا قيمة له... بل وتدعو (الذات الفردية) إلى إماتة نفسها، ليس استعلاء على المادية والسباق الحضاري — مع القدرة عليهما — بل انسحاباً من دخول معركتهما... وترك مجاليهما لأعداء الحضارة الإسلامية!!

أجل... إن البداية هي أن نتجاوز كل الصنوارف،

ونتفق على النموذج والإمام والأسوة ونرفض البدائل ، ونحترم كل من قادوا حضارتنا إلى طريق السنة ، حتى وإن بدوا أمام عقول القاصرين وكأنهم صرفوا الناس عن السنة ( إن صح الحديث فهو مذهبي - الإمام الشافعي ) ...

إن الرسول الذي رفض إسقاط النزعات الفردية الجامعة على الحقيقة الإسلامية المتوازنة ، وقال لدعاة الإسقاط الفردي : ( إني أتقاكم لله وأخشاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وأتزوج النساء ... ) .

هو - وحده - دون كل النماذج . الجدير باقتفاء أثره .  
والتأسي به .

إن راعي الغنم ، وتاجر خديجة ، وقائد بدر وأحد المؤتمن على أموال أعدائه والقاضي بين الخصوم وهو يخشى أن يلحن أحدهما فيخذه ، وزوج عائشة وأبا فاطمة وإبراهيم ، ومحتسب الأسواق ، والسمح اللين حين القدرة ، وليس الحقود الذي يتباهى بتصفية خصومه بطريقة دموية .. والذي يجوع كما يجوع الناس ، وينام على الحصير حتى يؤثر في جنبه ، وإمام الناس في صلاتهم ، ومعكف المسجد ، وحافر الخندق ، وحبيب أبي بكر وعمر أكثر من نفسيهما ...

هذا الرسول الإنسان الذي عاش الحياة بكل أعماقها ، وابتلى بخيرها وشرها ، وقدم لنا ( تجزية كاملة ) للإنسان

الإيجابي .. الذي يحترم ( الإنسان ) - في نفسه - وفي غيره - ويحترم الحياة ( الوقت ) لنفسه ولغيره .. والذي يؤمن بدور الإنسان الرائد في الحياة .. وبدوره الفاعل فيها حتى ولو لم يكن له نصيب من الحصاد ... « إن قامت القيامة وبيد أحدكم فسيلة فليغرسها » هذا ( الإنسان ) - الرسول - الذي عامل كل الناس وتعامل معه كل الناس باعتبارهم ( أناس ) لا باعتبار هوية ( طبقية ) .. ولا مذهبية ( مادية ) ولا جاه اجتماعي ، ولا مركز سياسي ... ولا مصلحة شخصية .. بل وجد الجميع في ظله المعنى الحقيقي للإنسان .. والأهداف الصحيحة للحياة الإنسانية هذا ( الإنسان ) هو وحده - وليس أي بطل آخر في تاريخنا ، ولا أي صاحب مذهب مادي أو اجتماعي أو فلسفي نستوره من خارج إطارنا الحضاري الذي يستحق أن نتأني به ونترك أزمته له .

إن تمثل حياته « سنته » وإن الإيمان والسعي نحو الالتزام بما تركه فينا من قيم وعبادات وتشريعات وتجربة عملية .. هي البداية الصحيحة للخروج من معترك الأفكار الضبابية ، والتمزقات المذهبية والاتجاهات الوجدانية والعقلية والكلامية التي شنت رؤانا ومزقت خطواتنا وأضاعت كثيراً من المعالم الصحيحة أمام شبابنا المثقف ، من خريجي الجامعات أو من الذين تعلموا بطرق أخرى فضلت خطواتهم على الطريق ، واتجهوا إلى الشرق والغرب ، في رحلة تيه وضلال ...

ولقد كان العامل الأكبر - بالتحديد - وراء بروز « عصر الضباب » وهو المصطلح الذي يصح أن نطلقه على مسيرتنا

في القرنين الماضيين - هو أننا سمحنا لذاتنا أن تتبعثر ،  
وسمحنا لعقلنا أن يتقلت من جاذبية السنة ، ويرنو إلى عدد  
من التجارب التي انبهر بأصواتها أو ببعض صور التقدم التي  
أحرزتها ... بل إن شباب هذا العصر ، والشباب الذي يعيش  
آثار مسيرة هذا العصر لم يجد أمامه طريقاً واحداً يمشى فيه ،  
بل وجد كوكبة في كل شيء ... : كوكبة في الآراء الاقتصادية ...  
وكوكبة في أساليب التحرر السياسي ... وكوكبة في الآراء  
الاجتماعية ... وكوكبة من النظريات الفلسفية التي تفسر كل  
منها الحياة بطريقة تتنافس مع الأخرى .

وقد ساعد على هذا الضياع أن حجم الأمة في هذه المرحلة  
لم يكن قويا يتحمل هذه الأدوية المتناقضة ، فكل مرحلة  
حضارية قدراتها على الاستجابة للتحديات ... وقد كانت  
المرحلة تقتضى التثبيت بالمنهج القادر على تحقيق الاستقرار ،  
وتوفير الانطلاق والإبداع ، وليس شرطاً أن يكون ذلك ( بمسار  
حديدي ) حتى نتجاوز المرحلة - كما فعل الاتحاد السوفيتي -  
ولا بعنف دموي - كما فعل ( بسمارك ) في توحيد ألمانيا -  
ولا بسلسلة من الحركات الدموية التي تفتقد الهوية والهدف  
كما فعلت كثير من الشعوب الإسلامية التي لم تصل في النهاية  
إلى شيء ... !!

كلا ... فمنهج التحول الإنساني نحو طريق الحضارة  
- ولا سيما حضارة كالحضارة الإسلامية لديها الكثير مما

تعطيه للعالم ومما يفتقده العالم — كان يحتاج فقط إلى المنهج الذي يتلاءم مع إنسان المرحلة ، ومع طبيعة المرحلة ، ومع التحديات التي تحتاج إلى استجابة تلائم المرحلة نفسها ، ويعبر — كذلك — عن التيار التاريخي والنهض الخاص والشروط الاجتماعية وطموحات الأمة نحو التميز والسبق الحضارى .

### إنسان الجامع والجامعة :

ثم مفارقة غريبة يلمحها الناظر المتعمق في منعطفات مسيرتنا الحضارية فذات يوم كان ( الجامع ) هو المسيطر على حضارتنا ومسيرتنا نحو صناعة التقدم ، وحتى مع سبقنا في بناء ( الجامع الأزهر ) و ( جامع الزيتونة ) و ( جامع القرويين ) والمدارس النظامية .

كانت صناعة الإنسان هي الشغل الشاغل للمربين والمعلمين والدعاة والجوامع والمدارس والوعاظ . وكما كانت الجاهلية تحتفل بميلاد شاعر لاعتبارات خاصة بها ، فقد أصبح ميلاد داعية فقيه أو محدث أو مفكر عملا من أعظم الأعمال . ولم نعرف — أبداً إلا في عصور الهوان — تخريج الفقهاء أو علماء الكلام أو المحدثين أو الوعاظ فحسب ، بل كان كل هؤلاء يتخرجون ( دعاة ) قبل أن يتخصصوا في أي ( فن ) يريدون . . . بل حتى مرحلة ( الفنية — الحرفية ) هذه كانت شبه عيب يلحق بمن يوصم بها . . وفي ضوء هذا لم يكن العمل قرين العلم فقط . . بل كان الدليل على صحته والثقة فيه وإجازة احترامه وبقائه . .

وليس أئمة الحديث فقط هم الذين كان يجب أن (يعدلوا) أو أن يجرهوا . . . بل حتى علماء الجغرافيا والرياضيات والطبيعة والتاريخ كان الطعن في دينهم يحول دون الأخذ عنهم ، ويدفع إلى نبذهم . ومع أن علماء المسلمين أجمعوا على أن تاريخ الأمم والشعوب يمكن أن يؤخذ عن أهل المتسلسلين ولو كانوا كفاراً — إلا أنهم — في المحيط الإسلامي — شرطوا العدول والثقة فيمن يسجل تاريخهم ، ونبذوا من عرف بنحلة فاسدة أو مما لآلة لحاكم . . . ووضعوه في مكان خاص . . .

### والمفارقة العجيبة . . . هي :

ماذا حدث في مسيرتنا هذه ؟ ولماذا أسقطنا — كغيرنا من الأمم — الربط بين ( العمل والعلم ) وقلنا بنظرية الفصل بين السلوك الشخصي والمستوى العلمي ، وأهملنا التربية وركزنا على ( التعليم ) بدل ( التثقيف ) الذي هو بمعنى التقويم ( ومنه تثقيف الرمح أى تقويمه ) وفتتتنا كلمة ( الدرجات العلمية ) وتوسعنا في ( الكم ) — مع أننا فشلنا فيه — على حساب الكيف . . . واحتفلنا في كل عام بتخريج ( أعداد ) لا بأس بها من الجامعات دون أن نحاول الكشف عن نسبة الب ( ٩ / ) من ( النوابع ) التي وصلت إليها ( اليابان ) في مقابل نسبة الب ( ٧ / ) التي وصلت إليها أمريكا . . . ( ١ ) ولم نسأله

( ١ ) في بعض الإحصاءات أنه لا يدخل الجامعات في اليابان إلا ما بين ١٠ — ١٥٪ والصراع شديد في هذا ( انظر التربية في اليابان ) ص ٧٥ تطبع مطب التربية العربي لدول الخليج ، الرياض — ووردت نسبة النواع هذه في مرات كثيرة .



أنفسنا يوماً : كيف جمع البخارى بين هذا المنهج الدقيق فى الاستقصاء والبحث وبين هذا السلوك القويم ؟ ولا كيف كان الأئمة الأربعة نوابغ فى علوم الإسلام مجتمعة ... تفسيراً وحديثاً وفقهاً وتاريخاً ، بينما كانوا على هذا الإخلاص لله والبعد عن كل الدنيا ... وخريجو ( جوامع ) الأزهر والزيتونة والقرويين فى الأجيال الماضية : ما النسبة بينهم وبين خريجى ( الجامعات ) الأزهر والزيتونة والقرويين فى العصور المتأخرة بعيداً . — بالطبع — عن الألقاب الكبيرة التى لم يكن يتمتع بها الأسلاف ( !! ) ؟

إن حضارتنا لم تعرف — فى عصور تألقها — سياسة الفصل بين ما هو اجتماعى وما هو شخصى ، ولا بين العلم والسلوك ، ولا بين المؤهل الفكرى والمستوى النفسى والتلقين . . . إن هذا ( الفصل ) ليس من مقوماتنا الحضارية ، بل إن الرسول — عليه الصلاة والسلام وهو أسوتنا وحياته سنتنا — ونحن نعرف عنه كل شيء ، وعظمته عندنا تتطلق من أننا نعرف عنه كل شيء . . . حتى أخص خصائصه الزوجية وزوجاته التسع — اللاتى يعتبرن من أظهر الأدلة على نبوته — كن يكشفن كل شيء ، وقد عاش بعضهن بعده لأكثر من نصف قرن . . . وتحدثن فى كل شيء . . . وأثبتن أنه — وحده فى التاريخ — الرجل الذى قامت أكبر الأدلة من داخل بيته وخارجة على عظمته الكاملة . . .

وقد أثبت فى بحث آخر لى ، أن قضية زوجاته التسع من

أمضى الأسلحة التاريخية في إثبات حقيقة نبوته . . . فهو الوحيد  
الذي كان عظيماً في بيته ومع زوجات تسع يستحيل تواطؤهن  
على الكذب !! — على امتداد هذه السنوات الطويلة التي عشناها  
معه وبعد .

والسؤال ما زال قائماً وهو :

كيف نجحت ( الجوامع ) ولم تتجح — كما ينبغي على  
الأقبل — ( الجامعات ) الحديثة — حتى الموسومة منها  
بالإسلامية — في تخريج نسبة المفكرين والدعاة المعقولة ؟ وكيف  
تعرض خريجوها الشباب لهذه السلبيات الحضارية ؟

إن الإجابة تتلخص في أن الجامعات خضعت للمنهج  
السائد في عصور التخلف فتأثرت بالمجتمع . . . ولم تقده —  
كما ينبغي — وسمحت ( بالفصل ) بين الشخصي والاجتماعي ،  
والقول والفعل ، والعقل والعاطفة ، والكمي والكمي . . .  
وكانت ( الثمرة ) هي إهمال بناء ( الإنسان ) . . . مع أن  
بناء ( الإنسان ) هو ( ألف باء ) حضارة وتقدم . . .

في مسجد الرسول في المدينة ، وفي المسجد الحرام في مكة ،  
وفي سائر ( الجوامع ) التي انتشرت خلال القرون المتتالية كان  
( المتخرج ) والفائز ( بحق الرواية ) ( — الذي يزعم البعض  
أنه الأصل لكلمة — بكالوريوس ) يخرج إلى الدنيا كأننا  
إنسانيا مختلفا عن الكائن الجديد الذي تخرجه الجامعات  
المعاصرة في العالم الإسلامي . . .

كان خريج هذه الجامعات يخرج بشعور من المسؤولية يحس معه أنه ممثل لعقيدة عظيمة وأمة ذات رسالة عالمية ( حتى ولو كانت أمته في مرحلة انهزام سياسي — وإلا فكيف تغلب العلماء على المنتصرين ) ، وكان يشعر بأن وراءه ماضيا متألقا وأنه أصبح صالحاً لتمثيله وإقامة الجسور بينه وبين المستقبل ... وكان يشعر بأن عليه أن يبدأ بدفع الثمن لأمته التي وفرت له وسائل التربية ، ولدينه الذي أشعره بوجوده وإنسانيته ، وحدد له مهمته في التاريخ ... وكانت الأهداف اليومية لا تستتفه ، إما لدينه وثقته في ربه ، وإما لأن أمته — من جانبها — كانت توفر ظروف الإبداع والانطلاق .

أما خريج الجامعات — في عصرنا — فتبدأ رحلته مع ( الضغوطات ) اليومية بعد تخرجه ، وهو يحس بأن نبوغه يجب أن يسخر في سبيل تحقيق هذه الضغوطات ، ويشعر — كذلك — بأن على أمته أن تبدأ في تيسير ما يليق به مكانة ورفاه ... وهكذا يأخذ الحقوق مرتين مرة قبل التخرج ومرة بعدها ... وتتزوى ( الواجبات ) في مكان ضيق من شعوره وسلوكه لا يكاد يرى ... وينزوى مع انزوائها الإحساس بالمسؤولية .. وغالباً ما تهمد أيضاً جذوة الحرارة الإيمانية التي كانت تصنعها ( الجوامع ) ويتألف الجانب المهني الجدلي العقلي الذي يبرز ذاته كذات متكلمة لا كذات بناءة فاعلة ...

كان الإنسان يصنع في ( الجوامع ) بالسيرة والسنة القولية والعملية وبالفكر الهادف الطموح وبالعلم المستأهل

لصفة ( العبادة العظمى ) وبالجهد العقلى والوجدانى عبر مجالات المجتمع والكون وبالثقافة الإسلامية الشاملة القوية .. أما الإنسان الذى يتعلم ويحصل على مؤهل من معظم ( الجامعات ) فى عصور التخلف فهو الإنسان الذى درس - بحق - أمشاجاً من الآداب والفنون أو الطب أو الهندسة أو الرياضيات لقد درس بعض منتوجات الحضارة وبعض إنجازاتها .. وأكل من بعض طبخها وقطف بعض ثمار أشجارها .

لكن إنسان ( الجوامع ) - إنسان الفكر الإسلامى المؤمن - كان الإنسان الذى تنصهر فى أحشائه الحقائق ممتزجة بحرارة الإيمان والأهداف الأخلاقية العليا . فهو يمثل البنية العميقة التى تصنع الحضارة وتفرزها وتتبادل مع مجتمعها المتحضر التأثير والتأثير والأخذ والعطاء ...

إن الحضارة التى مثلها إنسان ( الجوامع ) كانت تفهم مسيرة التقدم على أنها ( فكر ) ينتهى إلى وعى وعلم ومسئولية تجاربه الحضارة الإنسانية .. أما إنسان الجامعات الحديثة فيفهم الحضارة على أنها ( معلومات ) قد تنتهى إلى هدف لا ينتهى ..

وكانت الجوامع مفتوحة ليؤمها كل الناس - إن أرادوا أو ثابروا - وبالتالى كانت تخرج عقولا ورجالا يتمتعون بقدر من ( الثقافة ) سواء واصلوا المسيرة أو انطلقوا فى مجالات أخرى مزودين بما حصلوه .. أما الجامعات فتخرج

( فئة ) فقط قد تتعزل عن الناس مدرعة بمؤهلاتها في برجها العاجي أو قد تلتحم بالناس في إطار ( المعلومات ) المتخصصة التي استظهرتها ، ولا إطار العمل الحضاري والثقافي الشامل الذي يقود المجتمع إلى الانسجام ودقة الإيقاع والانطلاق .

إن إنسان الجامعات لا بد أن يعانق إنسان الجامع من جديد، ولا بد أن يربى على الكيفية الدقيقة التي يجب أن يتعامل مع الدنيا على أساسها ، ولا بد أن تلتحم الآخرة بالدنيا وتتحرك الدنيا في أعماقه نحو غايتها العليا . . . أي تعمير الكون باسم الله والله ، حتى يتضح أفكارهم إلى سبيل المحافظة عليها ، ثم إلى سبيل استخدامها لتحقيق المبادئ والقيم العليا (١) . لا بد أن يربى هؤلاء المسلمون على دراية دقيقة بقيمة الحياة التي تخفق بين جوانحهم ، والعاقبة التي سيؤولون إليها بعد موتهم ، حتى يعلموا جيداً متى يستهينون بحياتهم ويضحون بها ، ومتى يتشبهون بها ويحافظون عليها ، دون أن يعوقهم عن تنفيذ ذلك أي عائق .

إن هذا يعني أن مفتاح النهضة العلمية والصناعية والانطلاقة الحضارية ، لا يتمثل في علوم التكنولوجيا والمشاريع — فهذه نتيجة وليست سبباً — بل ربما تعدو هذه الأسباب أعباء وأثقالاً على كواهل أصحابها ، إن لم تنهض بدورها على قاعدة راسخة من المعارف الإنسانية الرشيدة لا تكتفى بالتغلغل في طوايا الفكر والعقل بل تتجاوزها إلى أعماق النفس والوجدان

(١) بتصرف من د / محمد سعيد رمضان البوطي : منهج الحضارة الإنسانية ص ١٦٨ دار الفكر .

ذلك لأن الوعي العلمى والتربوى هو الذى يحرك المصانع فى طريقها الصحيحة ويدفع الجهود التقنية إلى النتائج المرضية ، ويحرس النشاطات الاقتصادية المختلفة أن لا تخرف إلى سبل الخيانة والغول (١) . . . . وإلا فما بال المعاهد والجامعات التقنية — وهى فى شرقنا الإسلامى كثيرة — لا تغنى عن أصحابها ولا عن الأمة شيئاً ؟ وما بال أولئك الذين أتخموا بعلمها لا تستفيد الأمة منهم شيئاً ؟ بل إن الأمة لا تقيدهم بدورها — فى كثير من الأحيان — حتى بمقومات الحياة الإنسانية الكريمة ؟ . . . . وما بال معظم هذه الأدمغة العلمية التقنية تهجر من أوطانها ، إلى حيث تتجع لنفسها لقمة عيش هنيئة (٢) ؟ . . . .

إن الثقافة بمعناها الإسلامى الشامل يجب أن تتبوأ مكانتها فى تربية الإنسان عبر الجامعات والمعاهد العلمية . . . . ويجب أن يكون واضحاً أن السلوك الاجتماعى للفرد خاضع للأشياء أعم من المعرفة وأوثق صلة بالشخصية منه بجمع (المعلومات) . . . . وهذا الشيء الشامل الأعم من المعرفة هو (الثقافة) . . . . أى بتعبير آخر — مجموعة الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية التى يلقاها الفرد منذ ولادته كراسمال أساسى فى الوسط الذى ولد فيه . . . . فالثقافة — بهذا — هى المحيط الذى يشكل فيه الفرد طباعة وشخصيته (٣) عن طريق

- 
- (١) بتصرف من د / محمد سعيد رمضان البوطى منهج الحضارة الإنسانية فى القرآن دار الفكر ص ١٩٩ ط ١ .  
(٢) المرجع السابق ص ٢٠١ .  
(٣) مالك بن نبي : شروط النهضة ومشكلات الحضارة ص ١٢٥ ، ١٢٦ طبع دار الفكر الطبعة الثالثة .

( فلسفة الجماعة ) و ( فلسفة الإنسان ) أى معطيات الجماعة  
والفرد اللذين يجب أن ينسجما فى كيان واحد (١) •

إن ( الحرفية ) فى التعليم — بتعبير العلامة مالك بن بنى  
— يجب أن تتوارى من الجامعات الإسلامية — أى جامعات  
العالم الإسلامى — ويجب أن تحل محلها الوظيفة الحضارية  
للثقافة ••• أى صناعة إنسان — من خلال إطار ثقافى منسجم  
— يتدخل فى سائر أبنية المجتمع ، وينفى منها ما يجب أن  
ينفى ، ويؤكد ما يحتاج إلى تأكيد ، ويتفاعل معها كما يتفاعل  
الروح مع الجسد •

إننا — من كل هذا — لا ندعو إلى أن يفرض أسلوب  
( الجامع ) على أسلوب ( الجامعة ) فنحن نعرف — بداهة —  
أن العلوم العصرية تعقدت وأصبحت تحتاج إلى معامل وحقول  
تجريبية ومكتبات هائلة ••• لكننا ندعو إلى أن تكون الروح  
المسيطرة على الجامعة — تطبيقية كانت أو نظرية — هى روح  
الجامع ••• ففى الإسلام ••• كلها علوم واجبة — مادامت  
نافعة — وهى تتأرجح بين فرض العين والكفاية ••• إننا نريد  
لعلم الجامعة أن تبقى له روحه العلوية ووشائحه الأخلاقية  
وأهدافه الإنسانية إن على الجامع والجامعة أن يتطورا معاً  
مستتدين إلى فكرة الإسلام (٢) — علماً وإيماناً — وبرامج

(١) المرجع السابق — المكان نفسه •

(٢) انظر بتصرف د / حسان محمد حسان : وسائل مقاومة الغزو  
الفكرى للعالم الإسلامى ص ١٦٦ نشر رابطة العالم الإسلامى  
مكة المكرمة •

وأهدافاً ، وفي الوقت نفسه يتطور التعليم الإسلامي في المناهج والمحتويات وطريقة الاستيعاب والاختبار ، ووضع الشخصية والسلوك في الاعتبار التقويمي ، والربط بين الجامعة والجامع والمجتمع . . . فقد انفصل الجميع في فترات كثيرة ، كما انفصلت الدراسة في الجامع والجامعة عن مشكلات الناس وعكفت على مشكلات الماضي البائدة . . . والحلول البائدة للمشكلات البائدة (!!) .

إننا لا ندعو - كذلك - إلى رفض التخصص . . . لكننا ندعو إلى أن يكون التخصص موضوعاً في وعاء الثقافة الشاملة ، وإلى أن يكون المتخصص أهلاً لخدمة الحياة وليس عالة - ومستعلياً - على الحياة .

وهكذا - في سياق واحد - نريد إنساناً جديداً وشباباً جديداً بتكوين جديد نستطيع أن نطلق عليه : إنسان الجامع والجامعة !! .

### تكنولوجيا الإنسان الجديد :

إن أمام جامعاتنا فرصة حضارية نادرة . . . فمن البديهي أن سباق جامعاتنا مع الجامعات الأوروبية والأمريكية في جمال التكنولوجيا هو سباق معروف النتائج . وبالنسبة لوضعنا الحضاري ، فإن أي تقدم تكنولوجي هو تقدم مطلوب ، بل إن علينا أن نقفز - لو استطعنا - أضعاف ما يقفزون حتى



نصل إلى بعض ما وصلوا إليه . . . لكن جامعاتنا تستطيع مع ذلك أن تقدم تقنية متميزة وتكنولوجيا موجهة إنسانياً . . . وفي هذا المجال فإن الحضارة الغربية لن تسعى لناقستنا . . . لأنها قد انتهت من مدة طويلة من مصطلح ( التوجيه الإنساني ) — بل إنها لم تعد قادرة — حتى لو أرادت على التحكم في مسار التكنولوجيا . . . لقد أصبحت التكنولوجيا هي العربة التي تقود الحصان ، فإن الإنسان لسوء الحظ قد طور قوى تكنولوجية جديدة قبل أن يعرف كيف يستخدمها بحكمة ، بل أكثر من ذلك هناك دلائل كثيرة على أن نواح تكنولوجيا بأكملها بدأت تخرج من مجال سيطرة الإنسان ( ١ ) .

وما دام قد سمح للتكنولوجيا بالنمو دون مراقبة مناسبة فقد تصبح قوة مخربة تؤثر على العلاقات الدقيقة التي بنيت عليها المدنيات في الماضي ، وكما تتبأ الكاتب الانجليزي ( أ . م . فورستر ) في كتابه ( توقف الآلة ) :

« ستسير التكنولوجيا قدماً . . . ولكن ليس على خطوطنا التي رسمناها لها ، وستتقدم ولكن ليس نحو أهدافنا » . . . وأكثر المسائل التي تثيرها التكنولوجيا — أساساً — اجتماعية سياسية اقتصادية أكثر مما هي علمية في طبيعتها ، أضف إلى ذلك أن التكنولوجيا غير قادرة — نظرياً — على التهرب من الرقابة البشرية إلا أنها في الواقع تسيّر في طريق مستقل ،

---

( ١ ) انظر بينيه دويو : إنسانية الإنسان ص ٢٢٨ ترجمة الدكتور نبيل ضبحي الطويل — مؤسسة الرسالة .

لسبب بسيط ، هو أن مجتمعاتنا لم تصنع بعد توجيهات  
وضوابط للتحكم بها بالأسلوب الفعال المناسب .

وكل المجتمعات المتأثرة بمدنية الغرب تتبع (توراة التنمية)  
كعقيدة ، وتدور في دائرة تشبه ( حلقات ذكر الدراويش ) وتقول  
هذه ( التوراة ) : ( انتجوا أكثر لكي تستهلكوا أكثر ثم لكي  
تنتجوا أكثر ) . ولا يحتاج الإنسان لكي يكون عالم اجتماع  
حتى يدرك أن هذه هي فلسفة مريضة . . . . . مجنونة . فلن  
يستطيع تسارع النمو الاستمرار طويلا ، فضلا عن الاستمرار  
الدائم إلى ما لا نهاية . والواقع أن هذا النمو قد يتوقف في  
فترة أقصر مما يتوقعه الوعي النامي بين جمهور المثقفين ،  
والذي يعتقد أن النمو التكنولوجي بدون ضوابط يضر بصفات  
( الكيف ) لحياة الإنسان .

وفي حديث بعنوان : ( هل تستطيع أمريكا التغلب على  
خرافة النمو ) ؟ كان سكرتير وزارة الداخلية ( ستيوارت . ل .  
أودال ) شجاعا عندما قال : إنه ( من السهل اعتبار أمريكا التي  
صنعها الإنسان . . . . . كارثة على مستوى القارة ) . لقد ذكر  
( أودال ) مستمعيه : ( إننا نملك أكبر عدد من السيارات  
وأسوأ ساحات الخردة ) بالمقارنة لأية دولة أخرى في العالم  
نحن أكثر سكان العالم تنقلا ونتحمل أكبر قدر من الازدحام  
وفولد أكبر قدر من الطاقة ، وفي أجوائنا أكثر الهواء تلوثا في  
العالم ) . ولقد نقل عن رئيس بلدية ( كليفلند ) قوله مازحا :  
( إذا لم نكن واعين فسيذكرنا التاريخ على أساس أننا الجيل

الذى رفع إنساناً إلى القمر ... بينما هو غائص إلى ركبتيه  
في الأوحال والقاذورات ( ١ ) .

ففى إمكان جامعاتنا أن تركز على التكنولوجيا الزراعية —  
مثلاً — حتى توفر القمح الذى تستطيع به شعوب كثيرة أن  
ترفع رأسها أمام تحكم القمح الأمريكى فى رقابها ... وعندنا  
عدد من مئات الملايين من الأفدنة الزراعية فى العالم الثالث  
تنتظر منا هذا النوع من التقدم التكنولوجى .

وهناك تكنولوجيا حفر الآبار لإغاثة شعوب تتكب بالجفاف،  
وهناك تكنولوجيا مكافحة الأمراض المستوطنة والبيئية ،  
وصناعة وسائل الاتصال برية وجوية وبحرية ... وتعليب  
الأسماك ( وهو عمل نافع جداً وميسور ) ( ٢ ) وصناعة الأسلحة  
التقليدية ... والغزل والنسيج ...

إن ما تتكلفه بضع عمليات من عمليات زراعة القلب يكفى  
لتوفير أساليب الحياة لعدد من الملايين فى قارة إفريقيا ...

وإن ما يتكلفه المكوك الفضائى الأمريكى الفاشل (التحدى)  
— وهو مبلغ مليار ومائتى مليون دولار — يكفى لمنع الجفاف  
عن إفريقيا كلها إذا ما استثمر فى توفير المياه وأستصلاح  
الأراضى وبناء مساكن للمواطنين هناك .

---

(١) رينيه دوبو : إنسانية الإنسان : تعريب نبيل صبحى : مؤسسة  
الرسائل الطبعة الأولى ص ٢٢٩ .  
(٢) انظر حول تعليب الأسماك : التربية فى اليابان ( بو شامب )  
مكتب التربية العربى لدول الخليج ص ١٢ ، ١٣ .

وبالتالي تستطيع - جامعاتنا الإسلامية - أن تقوم بعملية انتقاء وترشيح تكنولوجيين ، ونمد أيدينا - باسم الإسلام - إلى شعوب كثيرة تعاني من حرب القمح والدولار والتتصير في جانب ، والتلويح بعدالة اجتماعية مادية وهمية في جانب آخر ... وبالإضافة إلى أننا سنقدم تكنولوجيا يقودها الإنسان ، ويمشى فيها الحصان أمام العربة ، ويرتفع فيها جسم الإنسان إلى القمر ، وترفع روحه - في الوقت نفسه - إلى السماء .

### الوعى بالذات :

إن من الصعب إبداع حضارة واحدة ذات نسيج واحد بذوات متنافرة لا تجمعها روح مناسبة واحدة ... وإِنَّه مهما اختلفت الإيقاعات في الحضارة ، فيجب أن يكون الإيقاع الأقوى هو الإيقاع الذاتى الذى يمثل الروح العامة للأمة .

والتاريخ البشرى - على طوله - يتكون من شريحتين : شريحة تميزت وصنعت حضارة نسبت إليها وأخذت بها موقعاً من التاريخ ، وشريحة مرت بالتاريخ ، كما تمر شتى الموجات الساكنة في الكون ، فهي تابعة لأية ذات ، وهي مؤهلة لعبور قنطرة الحياة تحت أى مظلة وبأى لون ، وهي مطية للزمان والمكان ، يشكلاتها كيفما اتفق ، وليس الزمان والمكان مطية لها تشكلها هي وفق ذاتها ، وبوعيا وإرادتها ...

والموجات الحضارية الكبرى في التاريخ ، تلك التى لم

ييق صالحاً للرصد والدراسة منها غير عدد محدود يحصره  
( أرنولد توينبى ) فى إحدى وعشرين حضارة •• هذه الموجات  
هى ما بقى متميزا وذا ملامح مستقلة فى موكب التاريخ الطويل •

وتحدد الأمة — آية أمة — انتماءها لأية شريحة من  
الشريحتين منذ البداية ••• أى فى مرحلة التكون والانطلاق •

ولندع الشريحة الثانية التى تمضى بلا معنى فى التاريخ ،  
فهذه لا تحتاج إلى وقفة ، ومسيرتها شبيهة بكل الكائنات التى  
تنتهى إلى عالم الغريزة ••• فهى توجه خطواتها إلى الدروب  
التي تحقق بها غرائزها البطنية والجنسية والفوضوية  
والاستعلاء الفردى الكذوب •••

أما الشريحة التى تعيننا فهى شريحة صانعى الحضارة  
الذين يتميزون بذات خاصة ، والذين تركبوا بصماتهم على  
الزمان والمكان ••• هذه الشريحة — صانعة الحضارة — هى  
التي انطلقت وفق فقه خاص للحضارة ، واشتبكت مع الزمان  
والمكان فى معركة إثبات الذات ••• فهى تستثمر كل ثانية من  
الوقت ، وهى تسخر كل ذرة من الأرض ، وهى تصارع الزمان  
والمكان بسلاحين قويين : سلاح الروح وسلاح العقل •••  
ولروحها وعقلها فقه معين تجاه للكون والتاريخ الأكبر والمجتمع  
الأصغر • ولا يعنى هذا أن هذه الشريحة المسلحة بالروح  
والعقل مجردة من الغريزة ••• بل جوهر القضية هو :

## لمن حق القيادة ؟

فعندما تقود الروح والعقل يفرضان على الغريزة وجوداً  
موجهاً منظماً ... وعندما تقود الغريزة تكسح الروح والعقل  
من طريقها بأسلوب ثوري عنيف !!

والتحدى الذى يواجهه أية مسيرة حضارية هو تحديد  
مسئولية ( القيادة لمن ) وإزاحة الحواجز التى تحول دون  
بروز القيادة المختارة ...

وهنا نجد أنفسنا أمام المسئولية المباشرة للجامعات  
ومراكز الأبحاث والمساجد والمواقع المختلفة للتأثير من مدارس  
ومعاهد ووسائل إعلام ...

ويتحدد الإطار الذى يتحرك فيه كل هؤلاء نحو الهدف  
الأسمى ، وهو تولية القيادة لصاحبها وفق العناصر الأساسية  
المكونة ( للذات ) تلك التى تحددها الأمة من خلال مسيرتها فى  
الزمان ، ومن خلال القيم الإنسانية والرؤى الكونية المزروعة  
فى المكان ...

وبالنسبة لنا - نحن المسلمين - فإننا إذا اتجهنا إلى  
المكان أو الزمان للبحث عن ذاتنا ، فإننا لن نجد إلا الحضارة  
الإسلامية ، هى التى وضعت بذورنا منذ خمسة عشر قرناً ،  
واقترنت كل الأعشاب الضارة بذورنا منذ خمسة عشر قرناً ،  
من جديد كل ما كان فيه صالحاً ...

وأذكر أنى كتبت شيئاً ما منذ عدد من السنوات نشر في مجلة سعودية (١) أقول فيه إن يسألنى عن ( عمرى ) : إن عمرى خمسة عشر قرناً ... إننى أبدأ لم أحس وأنا أتعامل مع الحياة أننى ابن أربعين عاماً ... بل إننى لأشعر بأن شجرتى وشجرة كل مسلم ... تمتد جذورها فى أعماق مكة والمدينة ودمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وبجاية والقيروان ... منذ تلك السنة الفاصلة فى الزمان ... سنة نزول القرآن ، وبرز المنعطف الجديد فى التاريخ : العصر القرآنى .

﴿ ٤٦ ﴾

إن أركان ذاتنا تحددنا هذه القرون عبر التفاعل الذى تم بين القيم القرآنية والصيغة القرآنية للحياة ، وبين التطبيق البشرى - عبر مراحل تاريخية تواصل فيها التاريخ تواصل الكائن الحى فى وجداننا ، وعبر أطر جغرافية وبيئية مختلفة ... وهكذا فالتاريخ الحى جزء من ذاتنا لا ينفصل عنها ... ونحن امتداد لقيم تاريخية وضعها رجال نحس بقراءة شديدة بيننا وبينهم .

إن العقيدة الإيجابية جزء من ذاتنا ... فجدورنا تشهد بأن عنصر الإيمان أصيل فى ذاتنا الشرقية الإسلامية (٢) ... إننا - دائماً - فى رؤانا الكونية كنا ننتقل من الإيمان ...

(١) مجلة التضامن الإسلامى ( مكة ) .

(٢) انظر هذا البحث القيم للدكتور حامد بدر . حول دور الدين الإسلامى فى نظام دوافع وحوافز العمل لأعضاء هيئة التدريس ( مجلة العلوم الاجتماعية ) العدد ٤ مجلد ١٣ - الكويت .

ولو أننا حافظنا معه على ( العقل ) لكان لمسارنا التاريخي تطور آخر . وفي تاريخنا كان النصر والهزيمة مرتبطين بالإيمان وعدمه . . . . . فحالة وجود التوجيه الإيماني المتحم بالعمل والحركة هي حالة النصر . . . . . وليس عصر النبوة ، ولا عصر الراشدين - فقط - هو ما يعطينا هذا المؤشر . . . فظهور كل تيار نصر مرتبط - دوماً - بوجود ( العزبن عبد السلام - أو - المنذر بن سعيد البلوطي - أو عبد الله بن ياسين - أو أسامة بن المنقذ - أو رجاء بن حيوة - أو أسد بن الفرات ( القائد الفقيه ) أو ابن تيمية - أو محمد بن عبد الوهاب - أو عبد الحميد بن باديس . . . ) هؤلاء الذين كانوا يعطون لقضية التغيير روحها التي تنتصر بها .

والعقيدة الإيمانية روح تتساقب - ويجب أن تتساقب - في كل ما يتصل بذاتنا ، فكراً كان الأمر أو عادات أو تقاليد . . . فلسفة أو اجتماعاً أو اقتصاداً . . . شريطة أن يكون الإيمان الإيجابي وليس الصوفي السكوني .

والوسطية والتكاملية بين العناصر يمثلان عنصراً - أيضاً - من عناصر ذاتنا . . . فنحن أمة لم تحب الطغيان يوماً . . . . . لأبين المادة أو الروح ، ولا بين المرأة أو الرجل ، ولا بين الفرد والمجتمع . بل من أخص خصائصنا - الذاتية - الرغبة في تجنب الإفراط والتفريط ، ومحاولة التوفيق بين العناصر . . . ولعلنا الأمة الوحيدة التي حافظت على وفاق عجيب بين العلم والإيمان في تاريخها . ومع تطور العلوم تطوراً مذهلاً فإنها لم



تجد نفسها بحاجة إلى فلسفة إلحادية أو مادية للمعاصرة ، بل رأت في الإيمان أفضل وسيلة للتحديث ولضبط الوسطية في التحديث نفسه ، ولبقاء التكنولوجيا تحت الهيمنة الإنسانية .

إن لكون ( العلماء ورثة الأنبياء ) في حضارتنا معنى عظيماً لم نقف عنده . . . فهذه التبادلية والتكاملية بين الوحي والعقل هو أمر جديد في التاريخ . . . وهو إحدى هدايا الحضارة الإسلامية للإنسان ، وهو جزء من ذاتنا الإسلامية التي تشعربتآزر كامل بين الوحي السليم والعقل السليم والفطرة السليمة .

وذاقتنا . . . ذات منفتحة . . . فنحن دائماً نقع في مناطق تشتبك مع حضارات العالم وطرقه الرئيسية . . . وديننا ( رحمة للعالمين ) وللناس كافة . . . ونحن فيه مثل كل الناس . . . لسنا شعباً مختاراً إلا في حدود قيامنا بالرسالة والأمانة . . . ولو حملها غيرنا لكان أفضل منا ( إن أكرمكم عند الله أتقاكم ) . . . وهكذا فنحن ذات بلا عقد ، وليس لنا قضايا حقد مع العالم ، بل من طبيعتنا التسامح . . . وندين العنصرية بكل معانيها الإنسانية والقانونية . . .

وبالتالي فليس لنا - كالمسلمين - فلسفة قومية تجاه الإنسانية ، ولا حتى فلسفة طبقية ( بالمعنى الطبقي الجدلي ) . . . ولسنا نملك قيماً تعطينا ( استعلاء عنصرياً ) . . . ومن الغباء أن يحاول بعضهم دعوتنا إلى ( الانفتاح - أو الإنسانية - بطريقة خادعاً لقتل ذاتنا والذوبان في الآخرين . . . أي

في الشريحة التي لا معنى لها في التاريخ إلا المعنى الغريزي ..  
 كلا ... فنحن أمة متميزة ... ولنا ذاتنا التي نؤصلها ...  
 ونوجهها لخدمة الإنسان ودعوته إلى الحق ... وإن كنا -  
 في نفس الوقت - حريصين على أن لا نذبح (ذاتنا) من أجل ذوات  
 أخرى تموه علينا بكلمات الإنسانية والانفتاح والعالمية ...  
 وهي أشد ما تكون (عبادة) لذاتها ، وقتلا لذوات الآخرين بكل  
 ما تستطيع من أسلحة ، ومن أبرز أسلحتها هذه الدعوة الكاذبة  
 للإنسانية والعالمية - وليست الإنسانية والعالمية في رأيهم ...  
 إلا ( ذاتهم ) العنصرية .



وفي الطريق لتحديد معالم الذات الحضارية للإنسان  
 المسلم قد نجد معالم أخرى .. لكن المهم - هنا - أن تأصيل  
 هذه المعالم وغرسها ، وصياغتها صياغة علمية تاريخية ، والانطلاق  
 منها نحو إقامة منهج حضارى مستقبلى يقوم على كتابنا الكريم  
 وسنة نبينا اللذين آمننا - بحق - بضرورتهما لوجودنا ...  
 هذا التأصيل العلمى ( لذاتنا ) و ( لرسالتنا ) هو واجب أساسى  
 من واجبات المؤسسات العلمية العليا ، وهو واحد من أفضل  
 ما يمكن أن تقدمه هذه المؤسسات للشباب ، ولا سيما هذه  
 المرحلة الضبابية من تاريخنا .

### التربية ... عقل الحضارة :

إن الارتقاء - بمعناه الجزئى أو المادى - دون اعتماد  
 على التربية والتثقيف هو كبناء جسم الإنسان - دون بناء

عقله . . . ولقد بيدو هذا الإنسان القوى البنية شيئاً عظيماً . . .  
لكنه — بدون العقل — لن يخرج عن كونه مُسيئاً . . . وليس  
إنساناً سويًا ، فضلا عن أن يكون إنساناً متحضراً . . .

والتربية ليست في الحقيقة ( للعقل ) فقط ، بل هي الموجهة  
( للقلب ) أيضاً ، ذلك لأن القلب له فقهه أيضا ، وثمة قلوب —  
كما يفيدنا القرآن — لا تعقل : ( لهم قلوب لا يفقهون  
بها ( ١ ) ) . . .

وقد وعى خصوم الحضارة الإسلامية خطورة التربية ،  
( التعليم ) ( الذي هو جزء مهم في التربية ) ولهذا أنفقوا  
الكثير في سبيل تعريب التعليم في بلادنا إما مباشرة أو بواسطة  
تلامذتهم الذين يتكلمون بألسنتنا لكن عقولهم مكونة غرباً . . .  
وبينما يعلن تقرير أمريكي رسمي خطير أن ( التربية ) هي أهم  
المجالات التي يجب العناية بها ، والتي يجب أن تسبق التصنيع  
والدفاع بل والصحة ( ٢ ) ، ويعلن التقرير أنه إذا جاءت أمة  
تقرض علي أمريكا مبالغ غير ( أمريكية ) لوجب إعلان الحرب  
فوراً ( ٣ ) ( مجرد اقتراض ) . . . بينما يعلن هذا في أمريكا  
يقرض علينا نحن المسلمين أن تدرس في أفضل المواقع في  
عواصمنا ( الجامعات الأمريكية ) ، وتنتشر مئات المدارس التي

(١) : الأعراف ١٧٩ .

(٢) أمة معرضة للخطر — تقرير مقدم للجنة الوطنية بأمريكا  
١٩٨٣/١٤٠٤ هـ مجلة رسالة الخليج العربي عدد ١٢ -  
السنة الرابعة .

(٣) المكان السابق .

تحمل أسماء ( اللبسيه والفريير ، والعذراء ، وفكتوريا ،  
والدومينكان ، والإنجيلية ، والقديس ... ) ويهتم بهذه  
المدارس — شكلا ومضمونا وفق المضمون الغربى — فتصبح  
محاط أنظار كل المثقفين ، لدرجة أن أساتذة عرباً فى الجامعات  
الخليجية يقبلون بالحياة بعيداً عن أسرهم العام الدراسى كله  
حتى لا يفقد صغارهم ( فى المراحل الابتدائية وغيرها ) مقاعدهم  
فى هذه المدارس التصيرية ( مدارس اللغات ) ...

ولقد عجبت إذ رأيت أستاذاً فى سن الشباب يترك أسرته  
من أجل ( ابن وحيد ) فى السنة الأولى الابتدائية ... ويرفض  
إلحاق أسرته به ... حتى لا يدخل ابنه مدرسة عربية ، مع  
أن البلد العربى الذى يعمل بها تهتم اهتماما كبيرا بالتعليم !!

وثمة آثار خطيرة على المستوى الفكرى والسلوكى  
والنفسى تتركه هذه المدارس ، مهما أخفت أهدافها (١) ..  
والغريب أن هذا يحدث فى عهود ( الاستقلال ) بينما كان من  
الأهداف الأساسية لحركات الاستقلال طرد لغة المحتل  
الأجنبى المفروضة ، فهامى تعود بثوب لطيف — من الباب  
الآخر ، وبأيدينا .

وبالإضافة إلى اللغة ومدارسها والجامعات الأمريكية

---

(١) ينظر فى هذه الآثار . د / حسان محمد حسان : التعليم  
باللغات الأجنبية فى المدارس الرسمية العربية تاريخه ،  
أسبابه ، آثاره ، نشر القاهرة . ١٤٠٠ هـ .

واليسوعية تم غزو أخطر للتربية من خلال العلوم التي تشكل الشخصية الإنسانية والاجتماعية وتعتبر علوماً قيمية ذات معايير عقدية ، وعندما نشأت في الغرب قامت على أسس ومعايير أخرى لا تتفق في جملتها مع مجموعة المعايير والقيم التي ينبغي أن تنطلق منها هذه العلوم في مجتمعنا المسلم (١) .

وقد نظر إلى ( التربية ) وكأنها علم محايد ( كالكيمياء والرياضيات ) - إذا صح أن تكون هناك علوم محايدة - مع أنها في صميم تكوين الشخصية وطابعها الحضاري ورسالتها وذاتها ، وحتى كلمة ( التربية الإسلامية ) - كعلم - كانت مبعثرة ومغزوة .

ومع التربية غزيت مناهج المواد الاجتماعية والدراسات الإنسانية من تاريخ وحضارة واجتماع وعلم نفس واقتصاد وشوه كل شيء ، حتى ( ابن خلدون ) الذي تتلمذ الغرب عليه ، تطوع طه حسين بتشويهه ، وشوه أدبنا ونسب إليه الانتحال ، وأبعد ( الاقتصاد الإسلامي ) ورفض في البداية - كمبادرة في الجامعات العربية الإسلامية - ( والذي يتبع ما حدث للمناهج الليبية إبان الاحتلال الفاشستي ، وما حدث للمناهج الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي ، وما حدث للمناهج التركية بعد إعلان العلمانية سنة ١٩٢٣ ، وما حدث للمناهج الأتدونيسية إبان سيطرة الشيوعيين وما حدث ويحدث في المدارس الفلسطينية تحت

(١) التعاليم من الحضارة ( مقال . د / سيد دسوقي حسن ) مجلة رسالة الخليج العربي عدد ١٥ السنة الخامسة ١٤٠٥ هـ .

ضغظ الإبتيطان الصهيونى ، . . . إلخ . والذى يتبع كل ذلك يدرك مكامن الخطورة ، ومواطن الدس ، وقتوات السم ) .

وهناك تفاصيل كثيرة عن مؤسسات التبشير والتغريب التعليمية التى أنشئت فى فلسطين والشام بدءاً من دور الحضارة إلى الجامعة الأمريكية فى بيروت ( ١ ) ، والقاهرة واستانبول . . . وتفاصيل عن كلية ( غوردون ) المنشأة بالسودان سنة ١٩٠٢ ، وكلية ( ماكريرى ) فى يوغندا التى كان يرسل إليها أبناء جنوب السودان خاصة لاستكمال دراستهم وفقاً للأهداف والتوجيهات الإنجليزية ( ٢ ) . وأخرى عن المؤسسات التعليمية الإنجليزية فى عدن منذ دخول الاحتلال البريطانى سنة ١٢٥٦ ( ١٨٣٩ ) ( ٣ ) وتفاصيل عن مؤسسات تعليمية شيوعية تحمل أسماء واضحة وشعارات مباشرة فى إقليم ظفار بسلطنة عمان ، وفى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية وفى مناطق أخرى وقعت تحت النفوذ الشيوعى فى الصومال .

ولقد ناقش عدد كبير من مفكرينا المسلمين خطورة التعليم الغربى التغريبى على حياتنا الإسلامية منهم شاعرنا الإسلامى

- 
- ( ١ ) راجع التفاصيل : مصطفى خالدى وعمر فروخ . التبشير والاستعمار فى البلاد العربية ص ٧٦ .  
( ٢ ) راجع ضرار صالح ضرار . تاريخ السودان الحديث . مكتبة الحياة . بيروت ص ٢٤٦ وما بعدها — وانظر : حسان محمد حسان — وسائل مقاومة الغزو الفكرى ٧١ — ٧٢ .  
( ٣ ) راجع جاد طه . سياسة بريطانيا فى جنوب اليمن . دار الفكر العربى . ص ٣٧٥ — ٣٧٦ ( نقلا عن وسائل مقاومة الغزو الفكرى ) .

الكبير ( محمد إقبال ) الذي أطلق على هذا النوع من التعليم ( حامض التعليم ) الذي يحاول إذابة الشخصية الإسلامية ومحو خصائصها الأساسية وتشويه ملامحها ، وتوجيهها وجهة غربية بحتة في الاتجاه والسلوك والمثأعر . ومن هؤلاء المفكرين مفكرنا الإسلامى المعاصر « أبو الحسن الندوى » فى كثير من كتاباته (١) ومحمد محمد حسين فى كتابيه : ( خصوصاً مهتدة من داخلها ، والاتجاهات الوطنية فى الأءب العربى ) (٢) .

إن الشبأب المسلم الذى نشأ فى هذا المناخ ومازال حتى اليوم يعانى منه يشعر بكثير من الازدواجية ، فهذه المناهج والجامعات التى تريد سلخه عن جلده ومسح شخصيته إنما هى إفرار لشخصية حضارية غربية عنه ، وتعبير عن قيم لا تمت إليه . . . . . وعلى الجامعات الإسلامية — وما قبلها من مراحل تعليمية أن تسعى لتطويع العلوم المادية والإنسانية لخدمة الأهداف العليا للمجتمعات الإسلامية ، تلك التى تعتبر عن عقيدتها وقيمتها ورسالتها الحضارية . . . . .

وهذه الأهداف العليا تقع على الجامعات عيب كبير فى تحديدها وصياغتها صياغة علمية .

(١) راجع التفاصيل : أبو الحسن الندوى ، فيجوى التربية الإسلامية الحرة فى الحكومات والبلاد الإسلامية . المختار الإسلامى القاهرة .

(٢) راجع وسائل مقاومة الغزو الفكرى — د / حسان محمد حسان طبع الرابطة ص ٧١ ، ٧٢ — مكة المكرمة ١٤٠١ هـ .

كما يقع عليها عبء صياغة القيم السائدة المعبرة عن  
طابعها الحضارى .

وعليها أن تكون الإطارات القادرة على تحقيق هذه  
الأهداف وغرس هذه القيم ، إذا أن دور الجامعات يأتي في  
المقدمة من حيث إعداد الطاقات البشرية المهنية والقادرة على  
المساهمة في نقل هذا المجتمع من مجتمع آخذ في النمو إلى  
مجتمع متطور خلال فترة زمنية طموحة ، على أن تتم عملية  
الانتقال تلك مع عدم المساس بكافة المقومات والقيم الصالحة  
للمجتمع ، مع الاستفادة القصوى من الموارد المتاحة بكافة قيم  
ومقومات الحياة وأهمها الإنسان .

والإنسان هو محور الحديث المتصل عن الإنتاجية ، لأنه  
مركز الثقل في عملياتها ، فمنه تتبع ، وإليه تتجه ، وهو في ذات  
الوقت الوسيلة إليها ، لأن به تتحقق المعدلات المرتفعة لها ،  
وتتمية الطاقة البشرية هي مهمة أساسية من مهام مؤسسات  
التعليم العالي ، وتقف على قائمة أولويات المجتمع الذي يعاني  
من قلة السكان ، وندرة القادرين من المواطنين على المساهمة  
في برامج التنمية (١) .

ومن الجدير بالذكر أنه في ظل المفهوم الشامل للتنمية ،  
وذلك الذي يجمع بين التنمية الثقافية والاقتصادية والأخلاقية

---

(١) إنتاجية مجتمع - د / محمد محمود سيفر - الطبعة الأولى -  
١٤٠٤ هـ ١٩٨٤ م - جدة - السعودية ص ١٥٦ .



في تسييج واحد بـ يبدو دور الجامعات في التنمية الموصلة إلى الأهداف العليا دوراً رائداً ، ليس باعتبارها التي تصنع الإنسان فحسب ، بل باعتبارها المؤسسات القادرة على التعبير الاجتماعي والثقافي النمطي الذي ينسجم مع شخصية المجتمع وذاتيته الحضارية .

وتستطيع الجامعات — في ضوء هذه الإمكانية — أن تعالج الأمراض الحضارية الخطيرة في الأجيال الشابة ، وعلى رأسها ( القابلية للاستعمار ) و ( الفراغ العقدي ) و ( اللاتتماء ) و ( اللامسئولية ) والاستعداد لتقبل ( الأزواجية ) في الحياة ، أي التعامل بالشخصية المزدوجة غير السنوية ، والتخلف الفكري ، والأمية الثقافية التي يتمتع بها قطاع كبير من حملة المؤهلات العليا .

وإذا كان هدف المجتمع — أي مجتمع — الوصول بأفراده إلى إنتاجية أكبر يصبح لزاماً أن يختار المجتمع لكل فرد فيه النوعية المناسبة من التعليم والتدريب خلال مدة محددة ليؤدي الفرد بعدها مهمة يعينها في خريطة المهام الوطنية للمجتمع ، وحسب قائمة أولويات محددة سلفاً بحيث يستتفر كل عضو في المجتمع ليقوم على ثغرة من الثغرات ، إما باعتبارها فرض عين أو فرض كفاية ، وذلك من خلال تحديد واضح للأهداف العليا للمجتمع .

نحن لا ننكر أن ذلك بالطبع أمر بالغ الصعوبة ، وتختلف

النظم في محاولتها القرب من الغاية ، ففي بلد كأمریکا تعطى للطلاب حرية الحركة في المدرسة والجامعة والمجتمع ليكتشف نفسه ، ويحدد قدراته ، ويصحح خطوه .

أما في بلدان العالم الإسلامي فحرية الحركة الاستيعابية للطلاب داخل النظام التعليمي تكاد تكون معدومة ، والأجهزة التعليمية غير قادرة ( إما لثقل حملها ، أو لعدم اكتمالها ) على الاكتشاف المستمر للقدرات المختلفة عند الطالب ، وحتى لو اكتشفت قدراته فإن تحقيق المبادرات المختلفة للقدرات المختلفة أمر ليس في قائمة أولويات النظم التعليمية في بلدان العالم النامي ، بل إنه في أحيان كثيرة يؤدي الهيكل الوظيفي في المجتمع إلى اختيار خاطيء من الطالب لنوع من التعليم أو التدريب بحيث يملئ هذا الهيكل ضغوطا اجتماعية تجعل مسارا بعينه أكثر بريقاً وأشد جذبا (١) .

وهذا ما وقع للتعليم الجامعي - فعلا - في كثير من بلداننا الإسلامية بحيث وجدنا كثافة لا لزوم لها في بعض التخصصات ، وبالتالي فائضا كبيرا . . . بينما وجدنا عجزا في كثير من التخصصات حتى في داخل الكلية الواحدة لم يكن التقسيم بين التخصصات متوازنا ومرتبطا بحاجات المجتمع التي توضحها خطة مستقبلية . وقد كان لهذا المنسلك تأثيره المدمر على الشباب ، إذ ظهرت لديهم البطالة المقنعة وأحسوا بأنهم عبء على حاضر أمتهم ومستقبلها ، وألفوا الكسل وعدم

(١) إنتاجية مجتمع د / محمود محمد بسفر ط ١ ص ١٥٩ ، (بتصرف) .

الاهتمام بقيمة العمل ، بل فقدوا تقديرهم لقيمتهم الإنسانية  
... فضلا عن وجود تخصصات كثيرة تعاني من نقص كبير .

وثمة مشكلات أخرى تتصل بالتربية وتحتاج إلى جهد  
كبير من الجامعات لما لها من صلة بالشخصية الحضارية للأمة  
... وللأسف الشديد ، فلا يكاد يهتم بها إلا عدد قليل من  
الجامعات في العالم الإسلامي ، وإلا بعض الغيورين الذين  
يعملون بجهود فردية ومحدودة ... وهذه المشكلة هي ما يعرف  
بازدواجية التعليم في عالمنا العربي والإسلامي ، حيث نجد على  
امتداد الجامعات نقطتين متناقضتين :

أحدهما يجهل قدر العلوم الإنسانية كالاقتصاد  
والاقتصاد والتاريخ وعلم النفس والفلسفة والتربية مع  
ما أثبتته هذه العلوم من قدرة تنظيرية في مجال تقدم الغرب  
ووعيه بذاته .

وثانيهما يتبع التحليل الغربي في رؤيته لهذه العلوم (١)  
حتى أصبح التصور الكوني والنفسي والأخلاقي والاجتماعي  
الذي تطرحه هذه الأفكار حرباً على دين الأمة ورؤيتها الإيمانية  
للكون وما وراء الكون .

وفي مرحلة (النضج) الذي اصطلحنا على تسميته

---

(١) انظر فلسفة العلوم بنظرة إسلامية : كارم غنيم (نقد كتاب)  
المسلم المعاصر ٤٣/١١ .

(بالصحة) أو بداية الثقة في أنفسنا وفقهنا لأبجديات التحضر  
... في هذه المرحلة يجب تصحيح موقفنا من هذه العلوم ..  
ولن يتأتى ذلك إلا بمزج هذه العلوم بعلوم الإسلام ونظرة  
الإسلام ، فهما - في الحقيقة - كيان واحد ... وليس هناك  
في الحقيقة شيء اسمه ... فقه ... وآخر اسمه اقتصاد واجتماع  
... فالثلاثة كيان واحد ... والأخلاق وعلم النفس والتربية  
منظومة واحدة يجب أن تتبع من التصور الإسلامي شريعة  
وأخلاقاً ، والفلسفة يجب أن تشرق من شمس العقيدة والوحي ،  
وإلا أصبحت تجريداً وهمياً وجدلاً عقيماً يستطيعه كل إنسان  
بلا ضوابط أو ركائز .

وهكذا فأسلمة المعرفة مطلب وجودي .. ولا بد من  
سد الفجوة الملحوظة بين التخصصات الإسلامية والتخصصات  
الأخرى وإلغاء الحواجز بينها بحيث يتم أسلمة التخصصات  
الأخرى بأن تتبع من مفاهيم إسلامية ، وفي الوقت نفسه  
الاعتراف بالتخصصات العلمية ومناهجها ، كالطب والهندسة ،  
والصيدلة ، والزراعة والعلوم .. الخ ، وقبولها وتطويرها  
إلى أحدث ما تصل إليه من منابعها في حضارتنا ومن تطورها  
في الغرب ، مع التأكيد على المحافظة على الشخصية للطالب  
الدارس لها ليتمكن من ممارسة مهنته بعد تخرجه إنساناً مسلماً  
قبل أن يكون متخصصاً فينطلق في ممارسته من تصورات إسلامية  
واضحة في التعامل مع الآخرين حتى يمكن أن يتميز عن صنوانه  
من غير المسلمين أخلاقياً وسلوكياً ... وهكذا فلن نصل إلى

منظور حضاري سليم دون ( أسلمة المعرفة ) وأسلمة عقول  
الباحثين عن المعرفة (١) .

إن التربية الغربية تقوم فلسفتها — بصفة عامة — على  
عدد من الكليات التي تتناقض تماماً مع فلسفتنا وحضارتنا . .  
ومن هذه الكليات : فكرة التطور في كل شيء حتى في الإنسان  
والقيم ، وفكرة البقاء للأقوى ، وفكرة صراع الطبقات ، وفكرة  
( فرويد ) في الدافع الجنسي وراء حركة الإنسان ، وفكرة  
النسبية وإنكار كل مطلق ، وفكرة الوضعيه ، وأن المعرفة الحققة  
لا تقوم إلا على المشاهدة وحدها (٢) .

فكيف نأخذ مناهج هي ثمار هذه البذور التي تتناقض تماماً  
مع كلياتنا الفلسفية التي تؤمن بوجود عناصر ثابتة في الإنسان  
والقيم ، وترى أن البقاء للأصلح ( وأما ما ينفع الناس فيمكث  
في الأرض ) وتؤمن بتعاون الطبقات لا بصراعها ، وترى أن  
الدافع الإنساني يخضع لحرك الإيمان — بالدرجة الأولى —  
ولاعتبارات أخرى مكملة له — ومنها الجنس والاقتصاد ،  
وترى أن ( عالم الغيب ) — والمعقولات — أساسيات في نظرية  
المعرفة الحققة . .

ويجب أن لا يغيب عن بالنا أن التعليم الجامعي يحتوي  
على عنصرين متكاملين : الجوهر الثقافي ، والإعداد التخصصي .

(١) أنظر إنتاجية مجتمع . الدكتور محمود محمد سفر : الطبعة

الأولى ١٩٨٤م ، السنوعية . ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

(٢) د/سيد دسوقي حسن : مرجع سابق .

فأما الجوهر الثقافي، فله أبعاد علمية وأبعاد تربوية وأبعاد حضارية، وأما الإعداد التخصصي فله أبعاد تحليلية وأبعاد تصميمية وأبعاد تقنية (١) .

أليس من الأجدى أن نتطرق مناهجنا وجوهر ثقافتنا من تصوراتنا الكلية؟ وأليس من الأجدى أن لا تبدد طاقات جامعاتنا التطبيقية في (البعد التحليلي) « وبتدرج ما البعد التصميمي » على حساب عملية التقنية؟

الحقيقة أننا بحاجة إلى إعادة نظر في النسبة بين البعد التحليلي والبعد التصميمي والبعد التقني في ضوء الحاجة الاجتماعية (٢) .

ونحن - أيضا - في حاجة إلى إعادة نظر مستبصرة في ضوء البعد الاجتماعي - وكياناتنا الحضارية - لكل مناهجنا في الجامعات والتعليم عموما .

وعندما تقوم بهذين المطلبين الجوهرين فسوف ينتهي عصر التيه والتمزق في شبابنا المثقف وسوف يجذ شباننا طريقه معبداً نحو الانطلاق والإبداع، شريطة أن يقف ذلك فوق أرضية السنة - نموذجنا الحضاري - وفي إطار بعث الذات المسلمة الواعية بإطارها الحضاري ومهمتها التاريخية .  
(والله ولي التوفيق)

(١) د / سيد ديسوقي، حسن . مرجع سابق .  
(٢) المرجع السابق .

## **الفصل الرابع**

**الغزو الثقافي الحديث في المجال التاريخي**

**ودوره في أزمة الحضارية**





## أسباب الغزو الثقافي في تاريخنا :

كثيرة هي الغارات التي شنت — ولا تزال — على تاريخنا الإسلامي وقديمة — أيضا — هي هذه الغارات وموصولة تتدافع حلقاتها في سلسلة يأخذ بعضها في خناق بعض ... وتعود هذه الغارات قديمها وحديثها لأخطاء أساسية ...

أخطاء تتصل بسيطرة ( المذهب ) على ( المنهج ) و ( الولاء المسبق ) على ( الحقيقة الموضوعية ) ...

وأخطاء تتصل ( بمخططات موصولة ) تهدف إلى القضاء على عظمة تاريخ هذا الدين وعظمة حضارته .

وأخطاء تتصل ( بأحقاد موروثة ) نشأت منذ ظهر الإسلام على هذه الأرض واستطاع ببساطته وملاءمته للفطرة ووضوح حقائقه العقديّة والتشريعية والأخروية أن يغير مجرى التاريخ وأن يعيد رسم خريطة العالم ، وأن يتسنم ذروة الحضارة ولقد قام تاريخ هذا الإسلام وقامت حضارته فوق الساحة نفسها التي كانت لعقائد أخرى — بطبيعة الحال — فكان هذا مبعث أحقاد لدى أصحاب هذه العقائد .

وأخطاء تتصل بأسباب أخرى كثيرة لكنها — في معظمها — تلتقى عند نقطة ( الصراع الحضارى ) الذى يعنى ( تشويه )

تاريخ هذه الأمة والانتقاص من قدر تجربتها في التاريخ ودورها في الحضارة ويعنى - أيضا - طمس (العوامل) التي جعلت هذه الأمة تثب هذه الوثبة العظيمة في التاريخ... حتى أصبحت مكتبة الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر تضم أربعمئة ألف مجلد بينما كانت أكبر كنيسة في أوروبا - أو مكتبة عامة - لا يزيد ما تمتلكه من الكتب عن ( ١٩٢ ) كتابا .

### فكيف حدث هذا القفز الحضارى الهائل ؟

وكيف استطلع جيل الصجاجة الذى نشأ فى صحراء العرب الوثنية بصفة عامة أن يصنع هذا التحول الحضارى الخطير الذى لم يتكرر فى التاريخ ؟ !

لقد كانت أحداث المائة الأولى من عصور الإسلام من معجزات التاريخ والعمل الذى عمله أهل المائة الأولى من ماضينا السعيد لم تعمل مثله أمة الرومان ولا أمة اليونان قبلها ولا أمة من الأمم بعدها . . أما جيل الصجاجة - فإنهم جميعا كانوا شموسا طلعت فى سماء الإنسانية مرة ولا تطمع الإنسانية بأن تطلع فى سماءها شمس من طرازهم مرة أخرى (١) .

إن تلك المعجزات التى صنعها ( القرآن ) و ( التربية المحمدية ) لحزية - فى نظر أعداء الإسلام - بحرب دائمة لمحو إشباعاتها ، ولصرف المسلمين عن التعلق بها والدوران

---

(١) العواصم من القواصم المقدمة بقلم العلامة محب الدين الخطيب .

في فلکها ، وعن الاعتقاد بأن آخرهم لن يصلح إلا بما صلح  
به أولهم .

إن نماذج أبي بكر وعمر وعثمان وخالد والزبير وطلحة  
وعمر وبن العاص — وهلم جرا — يجب أن تفسر مواقفهما  
تفسيرا يجعل وراء ظاهرها باطنا سيئا يجردها من عنصر  
( الإخلاص ) ويجب أن تكون فترة ( السيرة ) كلها بدءاً من  
صاحب الرسالة العظمى — عليه الصلاة والسلام — هدفاً  
رئيسياً للشبهات والظعنات والتباس التبريرات المغلوطة لكل  
مواقف اجتهادية .

وبعد الراشدين يأتي الأمويون الذين تلقفوا السراية ،  
وساحوا بها في الأرض فاتجهوا غرباً حيث أتموا فتح  
المغرب ( ٥٨٦هـ ) الذي كان قد توقف عند معركة ذات  
الصواري ( ٥٣٥هـ ) وفتحوا الأندلس ( ٥٩٢هـ ) واتجهوا شرقاً  
ففتحوا ما وراء النهر بقيادة المهلب بن أبي صفرة ومحمد بن  
القاسم الثقفي ومسلمة بن عبد الملك . . .

وكما لم تنتج المنيرة والعصر الراشدي من ترصد هؤلاء  
وكما لم ينبج الأمويون — من باب أولى — فقد نالت سهام  
هؤلاء العباسيين وكانت السهام الموجهة إليهم أكثر . . . لأن  
عمرهم قد امتد ، وخلفاءهم كانوا أكثر . . . وبالتالي فإمكانية  
التصيد والتشويه تمتد إلى أطول مساحة ممكنة !! .

وهكذا تتوالى الحلقات ، بحيث يراد للأمتنا أن تنتهي إلى

الإقتناع بأن تاريخها وحضارتها لا يستحقان منها كل هذا الولاء ، وبأن الانتماء إلى غيرها لن يؤدي إلى خسارة كبيرة بل ربما يؤدي إلى بعض مكاسب ( الحداثة ) و ( المعاصرة ) !! •

### المنهج المنحرف في معالجة تاريخنا :

والغريب أن هؤلاء يضعون لتشريح تاريخنا ( منهجاً خاصاً ) - وصولاً إلى إدانته - فبينما يعالجون تاريخهم ، وتاريخ كل الأمم الأخرى بمقياس قريب من ( الواقعية ) و ( الموضوعية ) لدرجة أنهم تواضعوا على التفرقة بين الالتزام العام والحياة الشخصية فإنهم يعمدون إلى محاكمة تاريخنا وكأنه تاريخ ملائكة ليسوا من البشر ، إنهم يريدون منهم أن لا يختلفوا في الرأي ولا يجتهدوا في الوصول إلى ما يؤمن كل منهم أنه الحق ... إنهم يريدونهم قوالب مصبوبة في قالب واحد دون أدنى تعبير عن العقل الخاص والرؤية الخاصة •

والحقيقة أننا نحن المسلمين ساعدنا على شيوع هذا المنهج ... فقد تحدث كثير منا عن هذا التاريخ بطريقة أسطورية فبدأ هذا التاريخ وكأن الذين عاشوه يجب أن لا تكون لهم أية اجتهادات مرجوحة ، بل كلهم يجب أن تكون كل اجتهاداتهم راجحة - وهو أمر لا يستقيم ومنطق الحياة - ولقد صرفنا هذا المنهج عن التحليل الموضوعي الكنزيم في إطنار الأدب الإسلامي الذي علمنا إياه نبينا عليه الصلاة والسلام •

... وقد أدى هذا إلى موقفين :

موقف قبول كامل لهذا التاريخ دون الاستفادة من بعض  
الجوانب السلبية البشرية التي هي ضرورة في الاجتماع  
البشرى ..

وموقف آخر تمثل في رد فعل يذهب إلى رفض هذا  
التاريخ مسبقيا إلى أية دراسات تتلفح يزدها العلمية والعملية  
في تحليل التاريخ ، وتعتمد إلى بث الشبهات والأفتراءات ..  
وتتضخم الاجتهادات البشرية المخلصة فتحولها إلى أخطاء  
وكبائر .. !!

وأيا كان الأمر — فقد كان هذا الموقف — من الأعداء  
والبسطاء مظهرا من مظاهر المنهج المنحرف في معالجة تاريخنا ،  
وهو مظهر سار في تاريخنا كله حتى اليوم .. فنحن لا زلنا  
ننظر إلى مجيلينا وأئمتنا في العصر الحديث بالمنظار نفسه ..  
فجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده — مثلا — يتواطأ كثيرون  
على إدانتها وقد بذل أحدهم عمرة — عن حسن قصد — وهو  
الدكتور محمد محمد حسين — رحمه الله — في ترصد حياتها  
وتأويلها — دائما — لغيز صالحها .. وكان على رأيه آخرون  
من المفكرين ، ومنهم : الدكتور على سامى النشار ،  
والأستاذ محمد عظمة خميس المحامى — رحمهما الله — ولا زال  
على هذا الزأى كثيرون في الجزيرة العربية ومصر حتى  
اليوم !!

وقد التقى مع هذا الرأى ( واستثمر الكتابات الإسلامية  
فيه ) الدكتور لويس عوض الذى يمثل قلعة من قلاع الصليبية

في مصر . . . والرجل الذي يرفض ما هو إسلامي وعربي . . .  
ويحارب على صفحات صحفنا المصرية والعربية في سبيل هدفه ،  
ويأخذ من أموالنا مكافآت سخية كفاء عمله الآثم ، وهكذا التقى  
البسطاء مع الأعداء . . . في نموذج حديث .

وفي المقابل وجد آخرون لا يسمحون بتشريح حياة الأفغانى  
ومحمد عبده بالموضع البشرى الذي يرصد الحسنات والسيئات  
وتوضح الظروف المحيطة بالاجتهادات الخاطئة !!

وإذا ما تركنا هذا المظهر من مظاهر الانحراف ، فإننا نجد  
مظاهر أخرى ساعدت على الانحراف عن المنهج الصحيح في  
معالجة تاريخنا .

ومن هذه المظاهر الاختلاف الأساسى فى النظرة إلى  
الإنسان ومقوماته بين المسلمين وغير المسلمين . . . فغير المسلمين  
قد ألفوا النظر إلى الإنسان وحركته وحروبته وتضحياته  
 وإقامته للمذاهب والدول بمنظار مادي بحت ، انطلاقاً من  
تركيزهم على الجانب المادي فى الحياة واستهانتهم بالجانب  
الروحي والأخلاقي فيه ، ولهذا فهم يفسرون حركة الحياة  
بالعامل الواحد المادي أو الاقتصادي ويكادون يغفلون دور  
العناصر الأخرى . وبعضهم يدين « شبنجلر » و « توينبى »  
 لاعتمادهما نزعة غيبية فى تفسير التاريخ ولا يتصور هؤلاء  
كيف أن أبا بكر يتبرع بكل ماله وكيف أن صهيباً ترك أهل  
مكة كل ثروته وقال له الرسول : ( ربح البيع ) . . . فهم من

عالم آخر بعيد لا يستطيعون منه أن يدركوا هذا المستوى الغريب ، وهم لذلك يلتمسون كل ما يظنونه يخدمهم لتغيير حركة الفتوحات الإسلامية تغيرات مادية أو اقتصادية بل إنهم أرادوا لظهور الإسلام نفسه أن يكون قد ظهر لعواميل اقتصادية أو لإضافة بعض الطبقات ١١

هذه الاستجابة الناقصة هي أول ظاهرة تتسم بها البحوث الغربية عن الموضوعات الإسلامية ذلك أن هناك عنصرا ينقص الطبيعة الغربية — بصفة عامة — لإدراك الحياة الشرقية بصفة عامة والحياة الإسلامية على وجه الخصوص . . . . . عنصر الروحية الغيبية وبخاصة في العصور الحديثة بعد غلبة النظريات المادية والطريقة التجريبية على وجه أخص ، وكل ما كانت هذه الموضوعات الإسلامية ذات صلة وثيقة بالفترة الأولى من حياة الإسلام كان نقص الاستجابة إليها أكبر في العقلية الغربية الحديثة (١) .

وبالإضافة إلى هذا فقد درج أكثر المستشرقين الباحثين في التاريخ الإسلامي على الخضوع لميزان الهوى ، واللجوء إلى كتابات من سبقوهم من المستشرقين وكاتبها (المصادر الأصلية) والاعتماد على الأفكار الكيفية عن الإسلام ، تلك التي سيطرت على الفكر الغربي في العصر الوسيط والحديث وأكثرهم يعمل في دائرة مهنتها الحرب على الإسلام والمسلمين

(١) الشهيد سنيذ قطب : في التاريخ فكرة ومنهج ص ١٦١ دار الشروق .

ويقومون بأبحاث موجهة أصلاً لتحقيق أهداف هذه الدائرة ،  
وبالتالى فهم يضعون فى أذهانهم فكرة معينة ويبدأون فى تصيد  
الأدلة لإثباتها ، وحين يبحثون عن هذه الأدلة لا تهمهم صحتها  
بمقدار ما يهتمهم إمكان الاستفادة منها لدعم آرائهم الشخصية ،  
وكثيرا ما يستتبطون الأمر الكلى من حادثة جزئية أو أنهم  
يدخلون بشخصياتهم وآرائهم وأهوائهم الخاصة فيفسرون  
الحوادث ويناقشون النصوص ، ويحللون القضايا والشخصيات  
الإسلامية على ضوء وجهة نظرهم ، ويطلقون من نافذتهم الخاصة  
فيلقون ظللا معينة تغير معالم الصورة الأصلية . ومن هنا  
يضربون فى متاهات أملاها عليهم الهوى والغرض رغم ما توفر  
لهم من الإمكانيات العلمية بالحصول على المخطوطات الثمينة من  
تراث الإسلام ، التى كان من شأنها أن تهديهم إلى الفكرة  
السليمة عن الإسلام والمسلمين (١) .

ويشير الدكتور « جواد على » إلى أن المستشرق كيتانى  
كان يعتمد منهاجا معكوسا فى البحث إذكرتا بكثير من المختصين  
الجدد فى حقل التاريخ الإسلامى والذين يعملون وفق منهج  
خاطيء من أساسه إذ يتبنون فكرة مسبقة ثم يجيئون إلى واقع  
التاريخ لى يستلوا منها ما يؤيد فكرتهم ويستبعدوا ما دون  
ذلك ، فلقد كان « كيتانى » ذا رأى وفكرة ، وصنع رأىه وكونه  
مما فى السيرة قبل الشروع فى تدوينها فلما شرع بها استعان  
بكل خبر من الأخبار ظفر به ضعيفا وقويها ، وتمسك بها كلها

---

(١) عماد الدين خليل : دراسات تاريخية ص ١٦١ نشر المكتبة  
الإسلامية .



نولا سنيما ما يلائم رأيه ، ولم ينادز بالخبر الضعيف بل بقواه  
ونسبته وعده حجة ، وبني حكمه عليه ، ومن يدري قلعله كان  
يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء ، ولكننه  
عفا عنها وعض نظره عن أقوال أولئك العلماء فيها ، لأنه صابح  
فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت ، وكيف يتمكن من إثباتها  
وإظهارها وتدوينها إن ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد  
وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث (١) .

وتزد في ختام كتاب ايتين دينيه (الشرق كما يراه الغرب)  
بعض الآراء حول هذا المنهج حيث يقول :

لقد أصاب الدكتور سنوك هيرغرثجة بقوله ( إن تنيرة  
محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها  
بالعقم إذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق ) .

ويعقب صديقنا الدكتور عماد الدين خليل على هذا الاتجاه  
المخووظ في الفكر الاستشراقى بقوله : ونحن نحب أن نبتطبع أن  
نحصل على عشرات بل مئات من هذا ( الانتقاء الكيفى )  
أو التفسير الاختيارى للنصوص التاريخية في كثير من كتب  
المستشرقين وبخاصة أجيالهم السابقة ، فبروكلمان على سبيل  
المثال لا يشير إلى دور اليهود في تأليب الأحزاب على المدينة  
ولا إلى نقض بنى قريظة عهدهم مع الرسول صلى الله عليه  
وسلم في أشد ساعات محنته ، ولكنه يقول ( ثم هاجم المسلمون

---

(٢) عبد الكريم باز : افتراءات فليب جتى وكارل بروكلمان ص ٢٥  
نشر دار تهامة - السعودية .

بنى قريظة الذين كان سلوكهم غامضا على كل حال ويتغاضى عن حادثة « نعيم ابن مسعود » في معركة الخندق كسبب انعدام الثقة بين المشركين واليهود ، ولعله يريد أن يوجي بذلك إلى أن اليهود لا يمكن أن يخدعوا!!!

ومثل هؤلاء — أيضا وأولئك الذين يسقطون على التاريخ الإسلامي أهواءهم المذهبية فهم منطلقون — أيضا — من خلفية فكرية قهرية معتسفة تلوى عنق الحقائق كرها حتى تصبح هذه الحقائق خادمة في بلاط ( الاشتراكية ) مرة و ( الليبرالية ) مرة أخرى ويصبح عمر وأبو ذر يساريين وعثمان وعبد الرحمن ابن عوف يمينيين إقطاعيين ويصبح هناك صراع بين اليمين واليسار في الإسلام (١) وقد لجأوا — في سبيل تكييف الوقائع حسب أهوائهم — إلى الاعتماد على الآراء والتحليلات الضعيفة وعمقوها وجعلوها هي الحق ، وسواها باطل كما رجحوا آراء المارقين والمنحرفين واعتبروهم الفلاسفة والمفكرين المثلين للإسلام ، وفي مجال التاريخ رجحوا آراء أصحاب الوفد الباطنية وأصحاب النزعات الفوضوية والإلحادية وجعلوهم ( المعارضة الفورية ) لسيادة التيار الإسلامي المحافظ والمثلة للشعب المسلم .

ومن مظاهر المنهج المنحرف الذي يلتزم به أقطاب الغزو الثقافي لتاريخنا ما يعتمد إليه أكثر المستشرقين من إسقاط المنطق الوصفي العلماني ، والرؤية البيئية المعاصرة للمناهج

(١) مقالات لكاتب شيوعي يدعى أحمد عباس صالح نشرت بمجلة الكاتب تحت هذا العنوان .

الغربية على الوقائع والأحداث الإسلامية الماضية فلقدهم وأنى المنتشرق المسلم دينه - على سبيل المثال - أنه من المتعذر إن لم يكن من المستحيل ، أن يتحرر المنتشرقون من عواطفهم وبيئتهم ونزعاتهم المختلفة وإنهم لذلك قد بلغ تحريفهم لضرة النبي والصحابة مبلغا يغشى على صورتها الحقيقية من شدة التحريف فيها ، ورغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمي الجاد فإننا نلمس من خيال كتاباتهم أن محمدا يتحدث بلهجة ألمانية ، إذا كان المؤلف ألمانيا ، وبلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليا وهكذا فتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب ، وإذا بحثنا في هذه السير عن الصورة الصحيحة فإننا لا نكاد نجد لها من أثر . إن المنتشرقين يقدمون لنا صورة خيالية هي أبعد ما تكون عن الحقيقة وهكذا تتعالى ( المظاهر ) التي أدت إلى انحسار المنهج لدى طبقات كثيرة ، من هؤلاء الذين يشتغلون بمعالجة قضايا تاريخنا الإسلامي وحضارتنا الإسلامية . . .

وكلها مظاهر منبعها الجهل في الأقل ، والحق في الأكثر والبعده عن المنهج العلمي السليم في كلا الحالين .

### تاريخنا والغزو التصيري والعلماني :

دأبت الدوائر الكنيسية والغربية بصيفة عيامة على الاشتغال بتاريخنا وحضارتنا بطريقة مكثفة . . . ولو جبرنا عدد المشتغلين بالتاريخ الإسلامي وتراث الإسلام من هؤلاء

لوجدناهم أعداداً غفيرة وقد تتلمذ على أيديهم من المسلمين  
كثيرون ، كما تتلمذ على أيديهم بعض النصارى العرب الذين  
جاءوا حضارتهم العربية والإسلامية ، ولم يكن في مستوى  
النضج الحضارى الذى مثله الشاعر اللبناني (بشارة الخورى)  
أو السياسى الوطنى المصرى (مكرم عبيد) الذى كان يقول  
(أنا مسلم ووطنا مسيحي ديناً) . . . وكان من أسوأ هؤلاء  
وأجراًهم على الدعوة للتغريب والتقصير الكاتب سلامة موسى  
والمؤرخان جورجى زيدان وفيليب حتى ثم تلميذهما (لويس  
عوض) !!

وقد تعاون المستشرقون والمستغربون معاً على تشويه  
تاريخنا ، ولهم فى ذلك خطوط فكرية ثابتة . . . نستطيع أن  
نلم بأهمها على النحو التالى :

١ - التركيز على فترات الخلاف بين المسلمين وتوسيع  
دائرة الحديث عنها ، والإغضاء - بالتالى - عن المساحات  
الأخرى الكبيرة المتألفة .

٢ - القول بأن فترة الالتزام بالإسلام لا تعدو أن تكون  
فترة العصر الراشد .

٣ - إثارة العنصريات وتعميقها بين العرب والبربر  
والأتراك والفرنجى بهدف إضعاف روح الإخاء الإسلامى بين  
المسلمين ، وهم يتذرعون لذلك بإحياء النزعات والخلافات بين  
هذه العناصر الإسلامية .

٤ - محاولة إبراز كلمات ( العروبة ) و ( العيزب ) و ( الفكر العربي ) و ( الحضارة العربية ) بعرض إثارة الشعوب الأخرى التي ساهمت في صنع الحضارة الإسلامية وتأليبها ضد العرب .

٥ - إبراز دور الأقليات غير المسلمة وتجزئتها هبند الأمة ... والزعم بأنها أقلية ظلمت وانتهكت حقوقها .

٦ - كراهية كل الدول والجماعات التي أنقذت المسلمين ووقفت ضد الزحف الصليبي مثل المماليك والأيوبيين والعثمانيين ويفوز العثمانيون بالنصيب الأوفر من حقد هؤلاء لاعتبارات كثيرة .

٧ - محاولة إرجاع ما يوجد من صور النهضة في الحياة الإسلامية إلى الاحتلال الأوروبي ، مثل الحملة الفرنسية على مصر ، وبعثات محمد علي إلى أوروبا .

٨ - تمجيد كل الذين خانوا الإسلام وحاربوه مثل مصطفى كمال أتاتورك في تركيا وأكبر شاه في الهند وغيرهما . وفي المقابل الانتقاص من قدر المجاهدين والمصلحين وتلفيق التهم ضدهم .

٩ - التشكيك في التراث الحضاري للمسلمين بدعوى أن الحضارة الإسلامية منقولة عن الحضارة الهلينية ، وأن

المسلمين — بالتالى — لم يكونوا إلا نقلة ومترجمين لفلسفة تلك الحضارة ، ولم يكن لهم إبداع فكرى ولا ابتكار حضارى (١) .

١٠ — تشويه منصب الخلافة الإسلامية ورميه بأبشع الصفات وإعلان حرب دائمة عليه حتى بعد زواله . . . . . وأليس عجبا أن تكون اتفاقية « كرزون » المبرمة ضمن مؤتمر لوزان ( ٢٤ يوليو ١٩٢٤ ) متضمنة فى بندها الأول : ( إلغاء الخلافة الإسلامية نهائيا من تركيا ) وفى بندها الثانى أن تقطع تركيا كل الصلة بالإسلام !! أليس هذا التدخل فى الشؤون الداخلية شيئا سافرا لعداء لا يشبه إلا تدخل أمريكا أمام أعيننا فى شؤون بلد غربى وإرغامه على إلغاء تطبيق الشريعة . . . . . وتهديد الآخرين الذين يفكرون فى السير فى هذا الطريق .

١١ — تشويه تاريخنا الحديث بطريقة مزرية ، وقد ذكرنا أن الدولة العثمانية باعتبارها البلد الذى قام بالدور الأساسى فى حماية المسلمين فى القرون الخمسة الأخيرة قد فازت بأكبر نصيب من هذا الهجوم التنصيرى .

وقد وصل الأمر بهذا الغزو الثقافى المشين أن اعتبر الوجود الإسلامى التركى الذى حمى الشاطئ المغربى كله ، وضد الغزو الأستبانى الزاحف بعد سقوط غرناطة ، وادخل الرعب فى قلوب الأوروبيين وجعلهم يقفون فى موقف الدفاع الأربعة قرون . . . . .

(١) عبد الكريم على باز : افتراءات فيليب حتى وبرزوكلمان .

أقول لقد اعتبر هؤلاء المنقذين الأتراك ( استعماراً ) واحتلالاً واعتبروا الحركات العلمية للصليبية الدولية ومحافل الماسونية التي باعت فلسطين — حركات تحريرية ثورية !!

واعتبار الأتراك مستعمرين أمر ترفضه طبيعة الأخوة الإسلامية ولئن كان بعض الولاة الأتراك قد أخطأوا في حق العرب . . . فإن كثيراً من ( الحكام العرب ) الذين حكموا بعد الترك قد أجزموا في حق شعوبهم . . . وقد كان الولاة الأتراك في جملتهم أفضل كثيراً من الذين حكمونا في عصور استقلالنا العظيم ( !! ) ومع ذلك — وبالإضافة إلى الأخوة الإسلامية — فنحن نتساءل :

### هل كانت تركيا دولة استعمارية ؟

ولكن نجيب — علمياً على هذا السؤال لا بد لنا من أن نتفق على معنى ( استعمار ) . . . الاستعمار — تاريخياً — حالة معينة من التطور الاقتصادي . . . تقف في قمة التطور الرأس مالي . . . فهل كانت الدولة العثمانية واقفة في هذه القمة ؟ بالطبع لا . . . لقد كانت أفقر من بعض البلاد التي يقال إنها خاضعة لها ، والعلاقة الرئسية الوحيدة التي كانت تربط مصر — مثلاً — بتركيا هي الخطة للسلطان ، وحق السلطان في تعيين الوالى . . . الوالى الذى لا يملك من الأمر شيئاً ، والذى كان المماليك والعلماء من بل والغامة — يملكون عزله في أى وقت ، وديون إبداء الأسباب .

وقبل الغزوة الفرنسية استقل مملوك فعلا بمصر -  
( غلى بك الكبير ) ولولا خيانة زوج ابنته له لما استطاع  
العثمانيون مواجهته . . . بل إن المماليك ظنوا أن الغزوة  
الفرنسية كانت بتدبير من السلطان العثماني ، وواجهوا مندوبه  
البياسي في مصر باتهامهم هذا (١) .

فهل جاء نابليون الغازي لتحرير مصر من الأتراك  
المبتغمرين ؟ أليس هذا القول من اللعب بالألفاظ أو اللعب  
بعقولنا ؟ ومن كان يحكم مصر في ذلك الوقت ؟

وهكذا يمضي الخط التصيري والتغريبي حاملا معنول  
الهدم في تاريخنا . . فهذا ( دومينيك سورديل ) صاحب كتاب  
( الإسلام ) ( ٢ ) يعالج تاريخنا وكأنه يعالج حركة وثنية  
غافضة ويقول عن الرسول : ( إننا لا نعرف الكثير عن شخصية  
محمد قبل تبشيره بالإسلام ، ولا نعرف بالتأكيد إلا تاريخ  
هجرته من مكة إلى المدينة ) مع أن حياة الرسول قبل البعثة  
أوضح حياة بالنسبة لكل العظماء والأنبياء . . وحياته في مكة  
تكاد تعرف يوما بيوم . . !! ويستمر ( دومينيك ) في تشويه  
حروب النبي وفي تشويه تاريخنا كله .

وفي كتاب آخر يحمل الاسم نفسه ، وقد ألفه ( هنري

- 
- (١) محمد جلال كشك ( دخلت الخيل الأزهر ) انظر عرضا له  
لكتاب العقل المسلم للدكتور عبد الجليم عويس .  
(٢) نشر دار المنشورات العربية بيروت ( ترجمة خليل الجر ) .



ما سنيه ) تتابع الأخطاء نفسها عن حياة النبي وتطور الحياة الإسلامية والنظر إلى محمد على أنه ليس نبيا وعلى أن القرآن من صناعته (١) وأما ( م - سن - ترتون ) صاحب كتاب ( أهل الذمة الإسلامية ) (٢) فقد عمد إلى تشويه التسامح الإسلامي ، فيصنور ( الأقباط ) في مصر والشام على أنهم مضطهدون طيلة العصر العباسي وما تلاه ، وهو يجعل المسلمين دائما سبب أية فتنة طائفية تقع ، مع أنه لم يملك إلا الاعتراف بطغيان الأقلية الضلّية واستبدادها في كثير من الأحيان .

ويأتي ( كارادوفو ) الفرنسي صاحب كتاب ( مفكرات الإسلام ) (٣) ليسير على الدرب نفسه ويصف الخلقاء بما ليس فيهم ، فالمنصور العباسي كان منجما ، و ( أم الرشيد ) قامت بوضع السم للهادي أخي الرشيد حتى يخلو الأمر لابنها ، ويصنور الخليفة هارون الرشيد - شأنه في ذلك شأن جورجى زيدان وغيره - بالصورة نفسها التي صورتها ألف ليلة وكتاب الأغاني للأصفهاني : بل إنه ليكابز ويقول بأن روايات ألف ليلة ذات طابع تاريخي ، وهو يتمادي في تخبطة فيرى أن « هرورا » سيف الرشيد كان يقطع الناس إربا لأقل هفوة ويرى أن البرامكة قد نكبهم الرشيد ظلما ، وربما أن هناك زواجا اسميا تم بين ( العباسة أخت الرشيد ) وبين جعفر البرمكي ، وهي الأسطورة التي نسج حولها أوهامه ( جورجى

(١) نشر محمد جواد مغنية الترجمة د / مصطفى الرافعي  
(٢) نشر دار المعارف بمصر ترجمة د / حسين حيش .  
(٣) ترجمة على زعيترة ، نشر بيروت ( الدار المتجددة للنشر )

زيدان) . . . وحتى ( المأمون ) جعله ( كارادوفو ) محبا لعادات  
الفرنس السامائيين ، وأما صلاح الدين الأيوبي فكان عند  
( كارادوفو ) مرثيا نفعيا يتظاهر بأنه سني غيور . . . والويل  
« لحمد الفاتح » لأنه بطل إسلامي وقاتح عظيم ولهذا يعتبره  
« كارادوفو » - لهذا السبب - متقلب الخلق عنيفا جافا !!

وبالإضافة إلى هذا الحشد الغريب من الافتراءات يضيف  
كارادوفو ( صراحة ) أخرى حول المؤرخين العرب المسلمين  
المعتمدين لديهم . أي لدى المستشرقين فيقول : إن مؤرخي  
الشرق الإسلامي لا يتمتعون بالشهرة في الغرب ، والمؤرخون  
الذين عرفوا في الغرب ليسوا مسلمين إن المؤرخين المعروفين  
لديهم هم ( جرجيس ، ابن العميد الملقب بالمسكين -  
( ت : ١٢٧٣ م ) والشهباس القبطي بطرس الراهب وبطريق  
الإسكندرية المشهور ( يوتخيوس ) ، واليعقوبي ابن الصبري )

أما عشرات المؤرخين الموثقين المسلمين بدءا من مؤرخي  
السيرة والمغازي ومرورا بالطبري وابن الأثير وحتى المقرئ  
وإبن كثير وابن خلدون ، وغيرهم فهم غير معروفين في الغرب .

ولهذا فإن ( كارادوفو ) نفسه لم يقدم من بين مؤرخي  
الشرق الإسلامي المعاصرين إلا ( جورج زيدان ) ذلك المعول  
الهندام في تاريخنا ، والذي ثبت ولاؤه المطلق للمحافل  
الماسونية وللقوجيات الاستشراقية ، الذي قام بتحريفات  
فاحشة في تاريخنا في تلك السلسلة التي سماها ( روايات تاريخ  
الإسلام ) ( ١ ) وتاريخ الإسلام منها براء . . .

والحق أن كل ما كتبه المؤلف من مدح لجورجى زيدان يؤكد المنهج الذى أشرنا إليه سابقا ، وهو المنهج الذى يتخذ المفسدين ( كهولاكو وأكبر ) ويذم المصلحين كصلاح الحسين الأيوبى ومحمد الفاتح .

لكننا لا نغفل هنا لمحة للمؤلف تضم إلى لمحاته (الصريحة) السابقة وهى لمحة تؤكد رأينا فى جورجى زيدان — أن يؤسف لموت ( زيدان ) ويشير إلى أن المستشرقين فقدوه منذ زمن قليل ، فكأنه يعتبره — وهو عربى — مستشركا وهذا ما نميل إليه .

لقد كان — بحق — كارل بروكلمان ( وولد فى ألمانيا عام ١٩٦٨ ) — واحدا من المفكرين الذين بذلوا جهدا كبيرا فى مجال التاريخ الإسلامى والأدب العربى ، فكتابه تاريخ الشعوب الإسلامية وتاريخ الأدب العربى من أهم الكتب التى ألفها المستشرقون ومن أحظاها لدى القارئ العربى ، لكن بروكلمان — على الرغم من هذا — لم يستطع التخلص من المفاخ نفسه الذى يفرض ( الفكرة السلطة عن الإسلام ) على المستشرقين .

فبروكلمان فى ( تاريخ الشعوب الإسلامية ) يعتبر الحجر الأسود وثنا يعبده المسلمون (١) وهو يقول إن النبى اعترف بثلاثة آلهة فى الكعبة فى سنواته الأولى (٢) ويتهم النبى بأن صلته بالوحى كانت صلة ظنية احتمالية (٣) !

(١) افتراءات فيليب حتى و كارل بروكلمان .

(٢) المرجع السابق ٩٥ .

(٣) المرجع السابق ١٠٠ .

ويذكر أن القرآن قد ارتبط عن اليهودية والنصرانية  
وكيفية مجهد تكيفا خاصا وفقا لحاجات شعبه الدينية (١) . . .  
ويذكر أن الرسول ألقى اليهود بتسريح صيام رمضان (٢) . . .  
ويتهم خالد بن الوليد بقتله مالك بن نويرة لمن أجل زوجته  
وفق الرواية الكاذبة التي أشاعها بعضهم . . . (٣) ويذكر أن  
ثراء عثمان غفر له عند الرسول النقص في كفايته الشخصية (٤)  
ويصف الخيرة ابن شعبة بأنه انتهazy لا ذمة له ولا إمام (٥) . . .  
وليس لنا قضية العجاسة أخت الرشيد وفق المنهج المنحرف  
نفسه (٦) .

وتفابع صفحات هذا الغزو التصوري لتاريخنا ، فنجدها  
عند جل المستشرقين من أمثال لامنس ، نموير ، ومزجليوت ،  
وتولد كة ، ودوزي وكيتاني ، ومارينيه وغولدا زيهز وإسرائيل  
ولفتون ( اليهودي ) وغيرهم .

وحتى بعض المستشرقين الكبار المشهورين بشيء من  
الحيدة والإصاف له لم تخل كتاباتهم من سقطات كثيرة ،  
فغوستاف لوبون صاحب كتاب ( حضارة العرب ) عاش يؤمن  
بأن غير الأوروبي في مستوى ( القرد ) مهما تعلم وتحصيل

- (١) المرجع السابق .
- (٢) المرجع السابق ١٠٠
- (٣) المرجع السابق ١١٥
- (٤) المرجع السابق ١٢٠
- (٥) المرجع السابق ١٢٣
- (٦) المرجع السابق ١٢١

ألقى الدكتور آه في الحقوق والآداب (١) وأرثولد توييبي يعتبر  
عودة الإسلام لقيادة الحضارة من الأخطار الضخمة ولتمنى  
أن لا يحدث ذلك (٢) .

بيد أن (غيليب حتى) يعتبر من أكثر من اجتهدت كتبهم  
بالافتقار إلى في نطاق التاريخ الإسلامي ، بلع محاولة أن يظن  
تبروح علمية منصفة وتقديرية كثيرا من كلمات المدح للحضارة  
الإسلامية .

ومشكلة غيليب حتى (ونجى تقدمه نموذجاً للمستعربين  
من العرب النصارى) أنه لبناني الأصل ينتمي أصلاً لحضارتنا  
وقد تقياً ظلها ، لكن بعد أن تخرج من الجامعة الأمريكية بـبروويت  
سنة ١٩٠٨ ذهب إلى أمريكا حيث حصل على الدكتوراه (١٩٢٥)  
وعاش في أمريكا فبدأت ذلك بمتفرجا في الوظائف الجامعية ،  
وحصل على الجنسية الأمريكية وأصبح مستشاراً في معارفه  
الاستشراق وأجهزة الاستخبارات بـورثيسيا لقسم اللغات  
الشرقية . . . ومن خلال كتبه ( أصول الدولة الإسلامية )  
( مشورية و الليوميون ) ( تاريخ العرش ) و ( الموجز )  
( المطول ) . و ( أصول الشعب والتحرر في وحياته ) و ( يتاويج  
شورلي و ليمان رجب و فلسطين ) ، واستطاع أن يبعث كثيراً من الأفكار

(١) انظر تظريه تلك في كتابه : السنن الثمينة لتظهير الأمم  
وفلسفة التاريخ .  
(٢) انظر الصفحة الأخيرة من كتابه ( الإسلام والعقوب والمستقبل ) ،

المؤيفة حول تاريخنا ، ولم يكن أميناً في تقديم حصارنا  
للأوروبيين . . . .

إن ( حتى ) ينفي كل معجزات الرسول ما عدا القرآن ،  
ويقول إن القرآن لم يعترف إلا بهذه المعجزة الوحيدة (١) مع  
أن القرآن والحديث أكد وجود معجزات أخرى للرسول  
كاشفاق القمر ، والإسراء والمعراج ، ونبع الماء من بين أصابعه  
ومعجزة الغار ، وسراقة وغيرها . ويتهم ( حتى ) الصحابة  
( باتفاق ) على موضع « السقيفة » ، فيقول ( ولعل مبايعة  
أبي بكر كانت مطابقة لشروع دبر قبل ذلك بينه وبين عمر وأبي  
عبدة (٢) وهو اتفاق وهمي اخترعته عقول مريضة ولم يتم  
عليه أي دليل ، وقد رد عليه كل الذين كتبوا بإنصاف في تاريخ  
الإسلام وفي النظريات السياسية الإسلامية .

ويتكلم عن سياسة عمر في إدارة الدولة فسرى أن عمر  
وضع الدستور الفكري الذي جعل للعروبة سمو ، وللمؤمن  
العجمي درجة أسمى من غير المؤمن .

وأقل ما يرد به على هذا الادعاء سلوك عمر نفسه ،  
وتهديد أحد الصحابة له بتقويمه بالسيف لو وجدوا فيه  
اعوجاجا . . . فهل هذا يتناسب مع الحكم العسكري الاشتراكي ؟

---

(١) تاريخ العرب المطول ١٧٧/١ نقلا عن ( اقتراءات فيليب حتى  
عبد الكريم باز ص ٤٥ ) .  
(٢) المصدر السابق ٤٧ .

فضلا عن أن استعمال كلمة ( اشتراكية ) المعاصرة إسقاط قاسد على تركيبة حضارية مختلفة تماما لها أصولها ونظمها المتكاملة .  
ويغزو ( حتى ) الحماسة البريئة في الفتوحات إلى الدافع الاقتصادي (١) وهذا أمر منتظر من ( حتى ) الذي أراد بمشيعته أن ينتمى إلى حضارة مادية فهو لن يستطيع فهم الجوانح الروحية . . . أما الجزية فقيمتها المادية تنفى هذا ، وقد كان المسلمون يروونها حين يعجزون عن الدفاع عن أهل اللذمة . . .  
وقد رد على هذه الشبهات ( توماس أرنولد ) في كتابه ( الدعوة إلى الإسلام ) . . .

وبما أننا لا نستطيع - في هذه المقالة - مناقشة ( حتى ) في كل آرائه ، لأن المناقشة الصحيحة لها تستوجب صفحات طويلة ، بينما المناقشات العابرة تضر بالقضية . . . فنحن - بالتالي - سنشير إلى بعض أغاليطه . . . ونعتقد أن أكثرها من الوضوح بحيث يدرك حقيقته جمهور المسلمين ، فضلا عن المختصين . . .

يرى ( حتى ) أن المشكلة الأولى لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه - كانت في التخلص من ميالسيه في الوظيفة الكبرى ( الخلافة ) وعلى رأسهم طلحة والزبير اللذان كانا

---

(١) المصدر السابق ٥٢ ، ٥٥ .

يمثلان الحزب الملكي . . . وقد انضمت عائشة إلى صفوف  
المترددين ضد علي في البصرة (١) .

وتحس — فقط — في هذا المقام — تحليل القارئ إلى ما  
كتب في هذا الموضوع في الطبري وابن الأثير وأبي بكر بن  
العربي صاحب العواصم عن القولاصم . . . والذهبي متفاجئ  
طبقات الحفاظ والديكتور إبراهيم شيخوط في (أباطيل يجب أن  
تخرج من التاريخ) . . . فهذه الدراسات وغيرها كثير —  
قد عرضت هذه القضية بحياد وموضوعية يستحقان التتوه .

ولم تكن الدولة الأموية لتمر دون تعريض لسيئاتها في شخص  
معاوية — رضى الله عنه — أم في خلفائه . . . وقد زعم (حتى)  
أن عهد الملك بن مروان قد ابتدى في بيت المقدس بالخنزيرة وكان  
غرضه أن يحول إليها أفواج الحجاج من مكة والتي استقر فيها  
منافسه ابن الزبير (٢) .

لهذا وأظن أن هذا الادعاء يكثف جرأة (حتى) بطيريقته  
مؤرخية عنه . فبعد الملك بن مروان فقيه عابد ناسك (كما توصفه  
ابن حجر والكتبي وابن الأثير وابن كثير) وقد احتج بشكائه  
الإمام مالك في الموطأ . . . فكيف يتسق هذا مع هذا الكفر الذي  
يرميه به — بلا سند — المؤرخ حتى؟ !

وهو يؤولهم بعد المنالك وأبنته الوليد وهشام بنت الوليد

- 
- (١) المرجع السابق ٦١ .
  - (٢) المرجع السابق ٧٦ .



الخمور (١) معتمداً على (الأغاني) الذي لم يقصد به أصاحته  
 أن يكون تاريخاً . . . لكن (حتى) وأمثلة يصرون - بالقول -  
 على أن يكون الأغاني وألف ليلة وليلة هي المصادر التاريخية  
 التي يتكون عليها . . . فأي منهجية هذه ترى ؟

وفي حديثه عن الدولة العباسية ينتهي إلى السبع قطبك  
 نفسها التي انتهى إليها غيره من المستشرقين مثل قضية العمارة  
 وعلاقتها بنكبة الترامكة (٢) وهلم جرا .

وهكذا تتضح لنا خطوط الهجمة التصيرية والعلمانية على  
 التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية والهدف الأساسي الذي  
 تسعى إليه هذه الهجمة هو فك الارتباط الروحي والوجداني  
 والعقلي الذي يربطنا بهذا التاريخ ولا سيما بفترة الاجتماع  
 التشريعي فيه ، وهي فترة الرسالة والفاشدية . . . ما تم  
 هذا . . . شأن تجزيدينا من بقية ضورنا إنماتنا للإسلام . . .  
 وهذا هو هدفهم الكبار . . .

## تاريخنا والفرز الماركسي :

عندما نجحت الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ في الوصول إلى  
 الحكم فيما عرف باسم (الاتحاد السوفيتي) وقامت على إثرها

(١) المرجع السابق ٧٨  
 (٢) المرجع السابق ص ٨٦

حركة ( ماوتسي تونج ) في الصين كان ذلك كلفيا لدى كثيرين من الدول النامية كي ينظروا بإعجاب إلى هاتين التجربتين •

وقد ساعد على هذا الإعجاب تلك الكراهية التي كانت قد تاصلت نحو الدول الغربية الاستعمارية التي تمثل القسوى المناهضة ( في حدود مصالحها !! ) - على المستوى الظاهري للرسمي على الأقل - للكتلة الشيوعية ... ومع الانبهار بدأ الكثيرون ينظرون إلى هذه القوة الجديدة على أنها المخلص من الاستعمار التقليدي وبدأت جماهير كثيرة من المثقفين تقرأ الفكر الماركسي بعين منبهرة كليلة عن كل عيب ... بل وبدأت قلقة تدعو إلى ضرورة - بل هتمية - السير في الطريق نفسه الذي سار فيه الروس والصينيون ... وبدأوا يستعيرون المناهج الشيوعية في تحليل حركة الحياة وفي التفسير الاقتصادي للتاريخ •

ولم يقف أمر التورط في استعارة هذا المنهج عند حدود الذين تمركسوا فحسب ، بل إن هذا المنهج قد رشح في كتابات غيرهم من الذين يمكن اعتبارهم أنصاف متمركين .. أو أقل من ذلك !! وعند هؤلاء وأولئك كان ثمة تركيز واضح على عدد من المبادئ أهمها :

١ - رفض التفسيرات الغيبية ( وهم يستعملون غيبية تمويها وبديلا لكلمة الدينية أو الإسلامية ) •

٢ - رفض أن يكون للدين تشريعات دنيوية والتركيز وفق فهم خاص على حديث ( أنتم أعلم بأمور دينكم ... ) •

٣ - التركيز على تشريح مجتمعاتنا الإسلامية في التاريخ  
في صورة صراع طبقات أو في صورة مطلقين وثوريين...  
وأغنياء وفقراء... ويمين ويسار .

٤ - التركيز على التفسير الواحد للتاريخ ( الجاهل  
الاقتصادي الأوحدي ) تقريبا فالعوامل الأخرى تكاد تكون عوامل  
ثانوية .

٥ - لصق الدين بالرجعية والتخلف ، والعمالة للأثرياء... .



وفي كتابات كثيرين سيطرت نغمة أن الإسلام دين  
الفقراء ، ودين الحرية ، ودين المساواة ، ودين العدل الاجتماعي ،  
وبدأوا ينبشون تاريخنا ليكتشفوا - وفق أسلوب فرض  
المذهب على المنهج - كل الشواهد التي تؤكد نظريتهم...  
وبدأوا يحللون الأحداث التي وقعت في عهد عمر وعثمان وعلى  
ومعاوية - إلى أن وصلوا إلى تاريخنا الحديث - تحليلا يخدم  
نظرتهم المبدئية المنطلقة من المادية التاريخية وقد التقوا مع  
العلمانيين في تضخيم المشكلات والخلافات التي وقعت بين  
المسلمين بحكم أنهم بشر ، وقد استثمروها لخدمة أفكارهم  
أسوأ ما يكون الاستثمار فالفتنة الكبرى ( وهي كبرى في رأيهم  
وليس في رأينا... !! ) أصبحت طبقة عازلة عن رؤية عظمة  
تاريخنا وحضارتنا ، وأصبحت بيت القصص في دراسات  
هؤلاء !! ولم تعد صراعاً على فقه الطوائف الإسلامية لأسلوب

الحكم أوه خلائف عناه لخصوص الإسلام ، بل أصبحت حركة  
ثورية ذات محتوى اقتصادي واجتماعي يقف منها ( عثمان بن  
عفان ) رمزا للقوة التقليدية المحافظة على مصالح الطبقة الثرية  
والنظام الإقطاعي ويقف فيها أبو ذر والثائرون ، رمزا للقوة  
التقدمية المناهضة !!

لم ينج « طه حسين » - مع ميوله الليبرالية - من هذه  
الآفة ، فهو قبح في ( الفتن الكبرى ) على شيء من التفسيرات ...  
وذلك عندما نظر إلى مقاومة قريش للرسول على أنها ليست  
مقاومة لعقيدة التوحيد أو للدين بل وإنما هي مقاومة لدعوة  
مساواة السادة بالعبيد ولبدأ عدم التفرقة بين الأغنياء والفقراء ،  
والأقوياء والضعفاء

وبعد « طه حسين » انهمرت ستبول الكتابات الشيوعية  
في لبنان ومصر وسوريا والعراق وبعض بلاد الخليج العربي ،  
وتنغص بلاد المغرب العربي ، ولا تكاد تخلو بلد من المتأثرين  
بهذا المنهج اليساري ، بل لقد ظهرت مدرسة تحاول استخدام  
منهج مطلق يشتم ( فالسار الإسلامي ) يركز وجود الكافحين  
ويكتشف العناصر الاقتصادية والمادية في تراثنا وتاريخنا . ومع  
هداية الستينيات من هذا القرن الميلادي - أي منذ ربع قرن  
قريباً - تمكنت هذه الكتلات من التعبير عن نفسها من خلال  
أبرز المواقع تأثيراً متلفعة بنوع من الشيوعية المعتدلة .  
وفي مجلة الكاتب - المصري - استطاع مؤرخون تحريزها

الماركسي (أحمد عباس صالح) أن يوجه المجلة وجهةً يمينيةً  
 ثابتة ، وقد كتب فيها سلسلة مقالات تحت عنوان (الصراع بين  
 اليمين واليسار في الإسلام) عالج فيها الأحداث التاريخية في  
 عهد رسول الإسلام والخلفاء الراشدين منقسمًا هذا الجيل  
 الإسلامي الفذ إلى يمين ويسار متصارع ... دون أن يلتفت  
 الكاتب إلى أن هذا الإسقاط (المصطلحي) الحديث الخاضع  
 لتطورات مجتمعات معينة من الخيانة للمنهج العلمي استقطبه على  
 عصور مختلفة وعلى مجتمعات ربما لم تعرف مصطلح (الطبقية)  
 بهذا المعنى الذي عرفه تطور المجتمعات الأوروبية ومع ذلك  
 فمن أنجل (نيلز هيد) فلاخير في أن يفهم (المنهج) العلمي  
 إلى الجحيم !!

ولقد بلغت الجرأة المسفة بالكاتب إلى أن يجعله الرسول  
 صلى الله عليه وسلم (زعيم اليسار) فهو في رأيه - (زعيمه  
 وواضع عقائده الأساسية) ويعلق أيضا الكتاب: الإسلاميين (١)  
 على هذه القرية الهابطة بقوله : ولكن كيف قبل الرسول  
 (اليساري) هؤلاء اليمينيين في تصفوفه بالإسلام وكيفية أثنى  
 عليهم وبشرهم بالجنة:

لقد كان بين السابقين إلى الإسلام أبو بكر وعثمان  
 وحيد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله ،

(١) انظر التاريخ الإسلامي والمذهب المتأخر في التفسير - الدار  
 الكويتية ص ١٠٨ .

كما أسلم علي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة وأسلم بعد ذلك  
خباب بن الأرت وعمار بن ياسر وصهيب وبلال . . .

وهكذا سبق للإسلام أغنياء وفقراء ، أقوياء وضعفاء ،  
أحرار وموالي عرب وعجم ، تجار رأسماليون وعمال محترفون  
. . . فأين كان اليمين في هؤلاء ؟ وأين الوسط وأين اليسار ؟  
وكيف أغضى زعيم اليسار عن وصولية اليمينيين ، أو كيف  
تقبل اليمينيون ثورية اليسار (١) .

وأیضا كيف كان هؤلاء على عهد الرسول كتلة واحدة  
يضى غنيهم بماله لفقيرهم ويشترى غنيهم بماله العبيد ،  
ويرفض أحدهم ثلاثة أضعاف الربح في تجارة قدمت له ،  
ويهبها لله :

أى للفقراء والمساكين صدقة لله مؤثرا ما عتد الله !!

أليس من الهبوط للعقلى — يلجم المذهب — أن ينسج  
بعضهم خيالات يخلعها على الآخرين حتى ولو لم تكن هذه  
الخيالات بنت بيئتهم أو مناسبة لحقيقتهم ؟ !!

ويمضى الكاتب — دون اعتبار للمنهج — لتصنيف الصحابة  
إلى يمين ويسار ، وإلى رمى اليمين من الصحابة ( وزعيمه

(٢) المصدر السابق ١٠٨ .

عثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ) وغيرهم بالتآمر على اليسار لدرجة أنه جعلهم مسؤولية قتل عمر بن الخطاب الذي جعله الكاتب زعيم الوسط الذي انتهى ثوريا . . . . . ولهذا قتل بمؤامرة يمينية أدانها أبو لؤلؤة المجوسي . . . . .

وهو تحليل متهافت يعتمد على أوهام مختلفة اختلاقا لكي يستفيد منها صاحب ( المذهب ) علي حساب أية ( منهجية علمية ) . . . . . أما أبو نذر وعلي بن أبي طالب - رضي الله عنهما - فهما أبو زعماء اليسار . . . . . وبعد جهاد ومطافاة نجح اليسار في تولي السلطة عندما وصل علي إلى الحكم !!

وهكذا نجد أسلوبا فجا في تشريح الوقائع ، وهو أسلوب لسنا بسبيل الرد عليه فلقد عالجت دراسات كثيرة وأصبح الآن كلاما ممجوجا لعل أصحابه أصبحوا يخجلون منه . . . . .

لكن هذا الغزو المادي لتاريخنا - في كل مرحلة ولا سيما الفترة الأولى - ظهرت له تكتلات متعددة متعاونة مستخدمة قدرتها الجلية ، ومستخدمة الثقافة التقليدية التي حصر كثير من أصحاب الاتجاه الإسلامي أنفسهم فيها .

ولقد عرفنا من هذه التكتلات اليسارية في المجال التاريخي كثيرين من بينهم « جلال العظم » صاحب نقد الفكر الديني والدكتور « محمود إسماعيل » صاحب الحركات السرية في الإسلام والدكتور « محمد خلف الله » صاحب الفن القضائي

من القزويني واللاهوتيين (عبد الله البراقوي) مترجم رأس السن، المسالفة  
 (توحيده العالم)، (ومختومة أمين العالم)، (وطارق بشير)،  
 (توحيده أمين)، (مجتهد عيار)، (توصيفي وخيتند)،  
 و (منح الصالح) و (عبد العظيم رمضان)، و (تديم البيطار)،  
 و (حسن جنفي)، و (عبد الرحمن الشرقاوي) وغيرهم .

تيمم: والحقيقة أن غزو (التفليس بالماضي) لتاريخنا، لم يقف  
 عند حدود الماركسيين وخدومهم، ولا عند حدود اليساريين الذين  
 يقولون إنهم يترفضون الماركسية في العقيدة ويقبلونها في الرؤية  
 للتاريخ . . . وإنما تجاوزوا الغزو هؤلاء إلى قطياع كبير من  
 المؤرخين الذين أصبحوا - بحسن نية غالباً - يركزون على  
 تأثير العوامل الاقتصادية، ونيالغون في قدرتها، حتى لكاد  
 للعوامل الأخرى العقيدية والفكرية والأخلاقية والاجتماعية  
 وغيرها من العوامل الفاعلة في التاريخ تتضاءل أمام هذا التركيز  
 على دور العامل الاقتصادي . . . مع أن التاريخ يمدنا بعشرات  
 من الحركات التي ضحى الناس فيها بحياتهم وأموالهم وأوطانهم  
 في سبيل القيم الأعلى للإنسان في هذه الحياة . . . وبالطبع  
 لا يعني هذا - من جانبنا - إنكار الدور العامل للمادى أو تقليل  
 لشأنه !!

## تاريخنا والتفسيرات القومية

لقد تفرقت تاريخنا - كما تعرضت كل قيم حياتنا -  
 لتفسيرات قومية متخرفة كل منها يحاول كشف كل العالم الوصيفة



في تاريخنا لجسارت قوته ، موروثي الأقباطم ، الأقباطيين من الكافرين  
 أسهموا في صفاغة الحضارة الإسلامية بكل الأخطاء ومنه فقوامه  
 وخذلهم نك هم المبدعون ، وإلهم ينسب كل الحضارة ، وخطا  
 الأقباط الآخرون هم الخاطئون في كل موقف ، ولا فضل لهم  
 في هذا التاريخ ولا هذه الحضارة الإسلامية . . . ونكتفي في هذا  
 المقام بضرب بعض النماذج لنعرف كم كانت هذه التفسيرات  
 القومية متجنية وبلهاء .

دعنا نفتح المسلمون بالمغرب والأندلس كان مفتوحا لتبليغ الإسلام  
 ولم يكن مفتوحا عربيا (تقريبا) لأنه ذلك لأن من ألبس خط الإسلام  
 البديهي أن القائم بها كانوا من جيل التابعين (ومثلهم من الأندلس)  
 ولم يكن يحرك هؤلاء إلا الإسلام ، وقد كان الأعجمي الصالح  
 عندهم أفضل من العربي للكافر والفايق . . . وحتى ولو كان هذا  
 العربي عم النبي — عليه الصلاة والسلام .

ومع هذه البديهي فثم حقائق أخرى تاريخية تدق تشرح  
 الفتح الإسلامي للمغرب بمبضع قومي عربي أو غير عربي . . .

إن الفتح الإسلامي للمغرب لم تستقر أقدامه ويدخل  
 مزاجا حاسمة من الفتح إلا بمساعدة عناصر غير عربية ، فمن  
 المعروف أن فتح المسلمين للمغرب هو أطول الفتوحات الإسلامية  
 وقد تعرض للانتكاسات في عدد من المواقف ، فقد قتل (عقبه  
 ابن أبي نافع) ، . . . وصاحبه أبو المهاجر دينار ، وذلك سنة  
 (٦٤٦ هـ) . . . وقد قتل زهير بن قيسن البجلي سنة (٦٤٩ هـ)

ونلاحظ من مقتل زهير أنه كان بعد أكثر من أربعين سنة من بداية الفتح ، فالحالة كانت كما نرى غير طيبة ، لكن أقدم الفتح في الحقيقة لم ترسخ على نحو مؤثر إلا من خلال عدد من المواقف أهمها :

١ - سياسة أبي مهاجر دينار في تأليف البربر مما جعل « كسيلة » زعيم البرانس يسلم ، ويسلم قومه البرانس بإسلامه . وبواسطة مساعدتهم دخل أبو مهاجر دينار أرض الجزائر حتى تظمنان ولم يكن أحد قبله قد استطاع دخول الجزائر . أي أن أبي المهاجر فتح الجزائر بواسطة الجزائريين البرانس أنفسهم .

٢ - سياسة حسان بن نعمان في تأليف البربر بعد أن هزم في موقعة الأوراس أمام الكاهنة ، ومن ثم سخط البربر على الكاهنة بعد أن أحرقت مزارعهم ، وانضمامهم جماعات وأفراداً إلى حسان ، حتى أولاد الكاهنة أنفسهم ، مما مكن حساناً من هزيمة الكاهنة سنة ( ٨٠ هـ ) في موقعة قابس .

٣ - وأيضاً فإن حساناً إلى جانب استعانته بالبربر ضد الكاهنة فقد استعان بهم في تحضير البلاد ، كما أنه استجلب إلى المغرب ألف أسرة مصرية ( حرفية ) للنهوض بالصناعة في البلاد .

فالفتح الحقيقي للمغرب كان بواسطة أجناس

إسلامية متعددة على رأسها أصحاب البلاد أنفسهم فكيف  
يسمى بالفتح العربي للمغرب إذن ؟ !! — إنه فتح إسلامي  
وكفى !!

وأما فتح الأندلس فقد كان إسلامياً حتى بلغة الإحصاء ،  
فإننا لو أحصينا الجيش الفاتح الذي ذهب مع طارق بن زياد  
( البربري ) ٥٥٠٠٠ سواء السبعة آلاف الأولى أم الخمسة الممثلة  
بها فسوف نجد أن معظم الجيش ليس عربياً إلا إذا كانت  
كلمة العروبة مرادفة لكلمة الإسلام حسب الاستعمال التجوزي  
الكريم في حضارتنا قبل أن تظهر لعنة القومية التي تحارب  
الإسلام وتتفكر له باسم العروبة عند العرب ، والطورانية عند  
الترك ، والفارسية عند الفرس .

ولو استعرضنا تاريخ الأندلس فسوف نجد أن العرب  
كانوا كثيرهم لهم الخطاؤهم وحسناؤهم ٥٥٥٠٠ وقد دخل زعماءهم  
في صراع مرير على الحكم ، متلفعين برداء العروبة المستغلية  
مثل ابن أبي حاتم ، ويوسف الفهري ، وبقية الولاة الذين  
ظهروا في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ، ولعل مذابح  
الحكم الربضي ( ١٨٥ — ٢٢٥ هـ ) البشعة للمولدين أبناء  
البلاد الأصلاء لن تشرف كثيرا المتمسكين بأمجاد النزعة القومية،  
كما أن الفتنة الطائفية ( ٢٩٩ — ٤٢٢ هـ ) التي كانت من  
أسباب سقوط الأندلس ، والتي سقطت فيها طليطلة قلب  
الأندلس ٥٥٥٠٠ هذه الفتنة تحمل فيها العرب كثيرهم أوزار  
الاغتصاب والنهب والاستهانة بالدماء ، ولم يقدموا نموذجا

لفضل من غيرهم ، وقد كادت الأندلس تسقط لولا أن قيض  
الله لأبناذها رجالا من صميم صنهاجة المسلمة العظيمة  
( البربرية ) - من ناحية الأصل - بقيادة البطل العظيم  
« يوسف بن تاشفين » رضى الله عنه وعمر ابن عمه العظيم  
أبى بكر بن عمر اللمتونى !!

إن الاعتزاز القومى باسم العروبة لن يخدم العرب ولا  
المسلمين ، وأن من شأنه دفع الأجناس الأخرى للبحث عن  
دورها فى الحضارة الإسلامية مع أن الدور كان مختلطا لا فضل  
فيه لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، ومن الصعب توزيع هذه  
الأمجاد ، لأن الآباء لم يتركوها بطريقة تقبل القسمة ،  
ولأنهم لم يقوموا بها لكى نتوزعها نحن ، بل قاموا بها حسبة  
إسلامية خالصة بصورة تعاونية تكاملية . . . وأيضا لقد قاموا  
بها لنضيف إليها لا لنتقاتل عليها . وأن استعمال المصطلحات  
الشمعية ليست فى مصلحة الأمة العربية ، ولقد استطاع  
أعداء الإسلام من مستعربين ومتمركسين استغلال هذه النزعة  
فحاولوا فصل العرب عن المسلمين بمبضع الاستعلاء الكذوب !!

إن مجال حصر التجنيات القومية عن تاريخنا تمتد إلى  
كل أجزاء هذا التاريخ وحضارته فأصحاب المنظار القومى لم  
يستجوا عن طمس الحقائق وتلوينها بمنظارهم القومى ، حتى  
شخصيات الصحابة والتابعين ، وحتى صلاح الدين الأيوبى  
الكردى وسيف الدين قطز المملوكى ، والسلطان عبد الحميد  
تركى ، كل هؤلاء يقومون بمقياس شعوبى فيحاول بعضهم  
سزقة أمجادهم لحساب العرب ثم مع ذلك لا يستريحون

إليهم — حتى مع حسناتهم — لأنهم لم يكونوا في النهاية عرباً  
•• وحتى موقف السلطان عبد الحميد رضى الله عنه من فلسطين  
والذى كان من أشرف المواقف في التاريخ الحديث حتى هذا  
الموقف يهال عليه التراب ، ولا يكاد يذكر ، ويصور السلطان  
عبد الحميد بصورة مزرية لا تليق بعظمته وسمو دينه •

إن النظرة القومية لتاريخنا — بخاصة — نظرة عمياء  
ظالمة عنصرية لا تخشى الله ولا يهملها الحقائق الموضوعية •••  
وإن خطرها في تأجيج الفتن كبير ، وأنا لا أبرى أصحابها من  
الخنوع للأهداف التمزيقية حتى ولو لم يحسوا بذلك •

إن الحضارة الإسلامية وتاريخها ميزات لكل المسلمين  
لا يمكن تقسيمه ، ومن أراد الرفعة فاليقدم بهذا التراث  
مضيفاً إليه وبانياً فوقه • أما الذى يريد التمزيق واغتصاب  
حقوق إخوانه وشركائه فى صناعة هذه الحضارة فهذا فى حقيقته  
عدو مبين لهذه الخصائص العظيمة المتكاملة التى صنعها كل  
مسلم ، عربياً كان أو مولى ، تركيا أو بربرياً أو فارسياً ، فكلهم  
ساهم فيها باسم الإسلام ، وكلهم أرادها إسلامية ، ويجب أن  
تبقى — وسوف تبقى بإذن الله — إسلامية إلى يوم القيامة •



## الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	— مقدمة
	<b>الفصل الأول</b>
٩	البحث التاريخى فى ضوء الرؤية الإسلامية
١٣	— المسلمون والتاريخ فى العصر الحديث
١٨	— الاتجاه الإسلامى المعاصر فى التاريخ
٢٧	— الحصاد والتقويم
	— دراسة نماذج معاصرة
٤١	— النموذج الأول : التفسير الإسلامى للتاريخ بقلم الدكتور : عماد الدين خليل
٥٧	— النموذج الثانى : العودة إلى الذات للدكتور : على شريعتى
٧٣	— النموذج الثالث : الحضارة تحد للدكتور : محمود محمد سفر
٩١	— النموذج الرابع : وبخلت الخيل الأزهر تأليف : محمد جلال كشك
	<b>الفصل الثانى</b>
٩٩	— موقف الفكر الإسلامى المعاصر من الحضارة
١٠١	— توطئة
١٠٧	— مناطق الاشتباك

## الصفحة

## الموضوع

- ١٠٩ — المنهجان المرفوضان وتأثيرهما  
١١٣ — ~~توضيح~~ مرحلة الثقة والنضج  
١١٦ — نقد الحضارة الحديثة  
١٢٤ — موقف البناء الذاتى ورفض التفسيق  
١٣٣ — الطريق لإقامة حضارة إسلامية معاصرة.

## الفصل الثالث

- ١٤١ — الأزمة الحضارية المعاصرة للمسلمين وفقه التاريخ  
١٤٣ — مناهج ردود الأفعال  
١٤٥ — القضية الأساسية : معرفة البداية  
١٥٠ — السنة والنموذج القدوة  
١٦٦ — تكنولوجيا الإنسان الجديد  
١٧٠ — الوعى بالذات  
١٧٢ — لمن حق القيادة ؟  
١٧٦ — التربية عقل الحضارة

## الفصل الرابع

- الغزو الثقافى فى الحديث فى المجال التاريخى ودوره  
١٨٩ فى ازمتنا الحضارية  
١٩١ — أسباب الغزو الثقافى فى تاريخنا  
١٩٤ — المنهج المنحرف فى معالجة تاريخنا  
٢٠١ — تاريخنا والغزو التنصيرى والعلمانى  
٢٠٥ — هل كانت تركيا نولة استعمارية ؟  
٢١٥ — تاريخنا والغزو الماركسى  
٢٢٢ — تاريخنا والتفسيرات القومية



رقم الإيداع : ٨٦/٤٩٨١

الترقيم الدولي : ٩ - ٧٦ - ١٤٣٠ - ٩٧٧